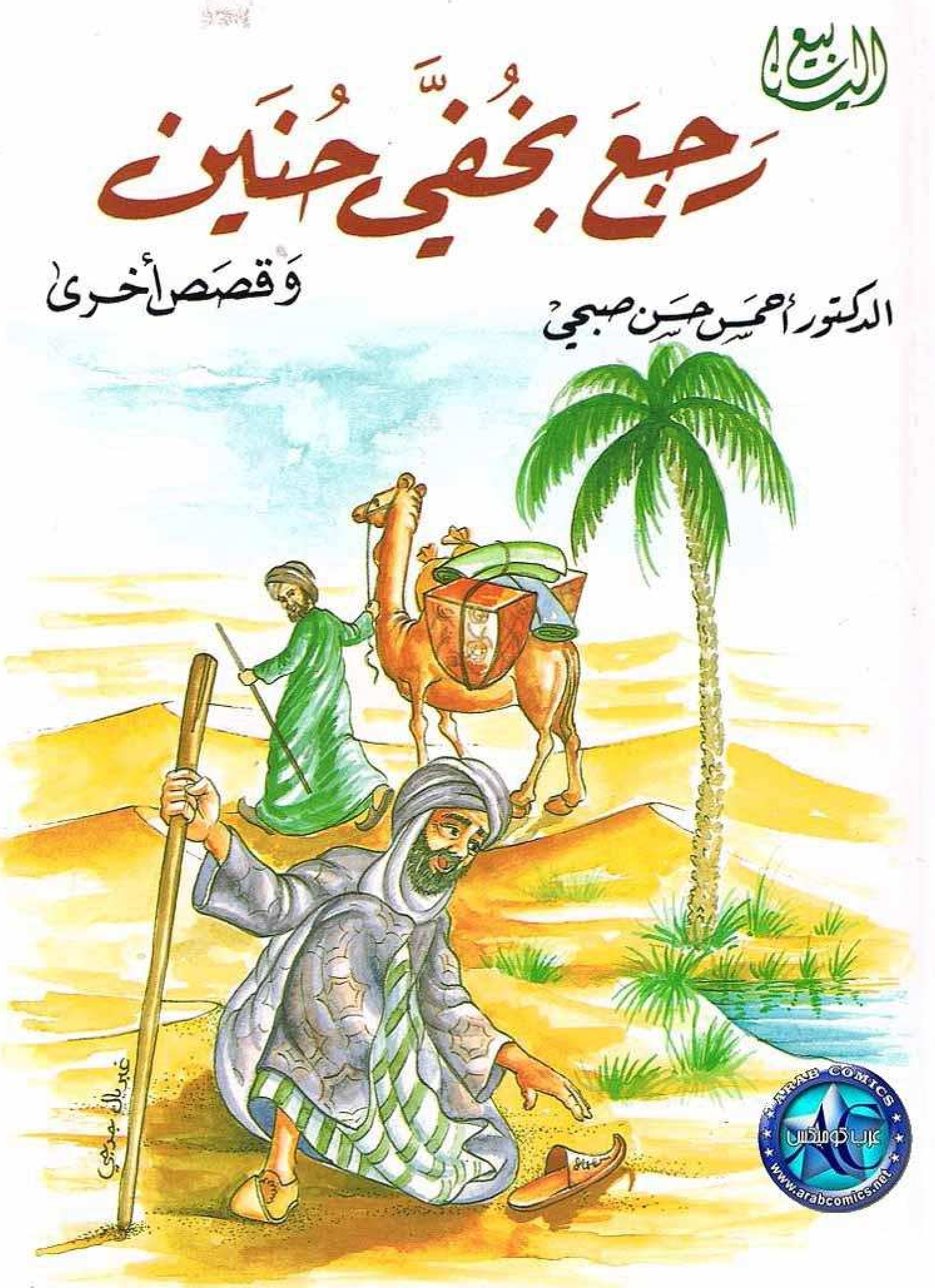


ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

مَكتبة لبنان نَاشِرُون

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ٢٠٠٠

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ٩٢٣٢-١١٠
بيروت - لبنان
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر.

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

رقم الإيداع ١٩٩٩/١٤٢٦٨
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٤٢٥ - ٢

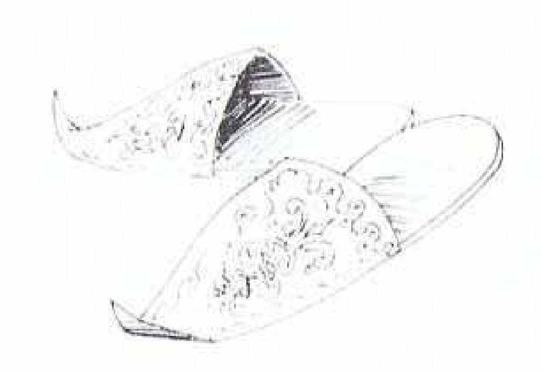
رسوم : يوسف راغب



رجع بخُفَّي حُنين

وقصص أخرى

الدكتور أحمس حسن صبحي



مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

نَفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاماً

كانَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ بْنُ الْمُنْذِرِ – عَلى الرَّغْمِ مِنْ جُنوحِهِ إلى اتِّخاذِ قَراراتٍ شاذَّةٍ في تَصْريفِ أُمورِ دَوْلَتِهِ كَيَوْمَي البُؤْسِ والنَّعيمِ – يَحْمِلُ قَلْبًا وَدودًا خَيِّرًا في مُعْظَمِ حالاتِهِ .

رَأى الْمَلِكُ النُّعْمانُ يَوْمًا بَيْنَ حاشِيَتِهِ رَجُلاً وَقورًا مُطيعًا ، فَظَلَّ يُراقِبُهُ فَتْرَةً ، فَتَأَكَّدَ مِنْ رَجاحَةِ عَقْلِهِ واتِّزانِهِ ، فَناداهُ وسَأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ ، فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ :

« أسْمَوْني ‹‹ عِصامًا ، يا مَوْلايَ ›› . »

فَسَأَلَهُ الْمَلِكُ : « مَنْ هُمُ الَّذينَ أسْمَوْكَ ؟ »

فَقالَ عِصامٌ : « والِدايَ و جَدّاي . »

فابْتَسَمَ الْمَلِكُ النّعْمانُ ، واخْتارَهُ حاجِبًا خاصّا لَهُ ، وأَوْكَلَ إِلَيْهِ أُمورَهُ الخاصَّةَ .

جاءَهُ عِصامٌ يَوْمًا يَقولُ لَهُ :

« يا مَوْلايَ ، جاءَ بَعْضُ الشُّيوخِ لِلِقاءِ مَوْلايَ ، فَقَدَّموا لِي مالاً لأَسْمَحَ لَهُمْ بِمُقابَلَةِ جَلالَتِكُمْ . ولَقَدْ رَفَضْتُ المالَ الَّذي لا حَقَّ لِي فيهِ . لا أُريدُ أَنْ أَمْنَعَ دُخولَهُمْ عِنْدَما يَحينُ دورُهُمْ ، فَقَدْ أَظْلِمُهُمْ . ولا أُريدُ أَنْ أُدْخِلَهُمْ لِمَوْلايَ لأَنَّهُمْ لَيْسوا بِأَسْوِياءَ . »

فابْتَسَمَ الْمَلِكُ لِحاجِبِهِ ، وطَلَبَ مِنْ عِصامٍ أَنْ يُدْخِلَهُمْ .

عَرَفَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ ، مَدى أمانَةِ حاجِبِهِ ، فازْدادَ تَقْديرًا لَهُ ، وعَوَّضَهُ عَنِ المالِ الَّذي رَفَضَهُ بَعْدَ فَتْرَةٍ كَمِنْحَةٍ لَهُ ، فَقالَ لَهُ عِصامٌ :

« يا مَوْلايَ ، هَذِهِ العَطِيَّةُ لا تُرَدُّ مِنْ حاجِبِ الْمَلِكِ .

لَكِنَّها كَثيرَةٌ ، يا مَوْلايَ ، كَأَفْضالِكَ . هَلْ تَأْذَنُ لي أَنْ أُعْطِيَ الفُقَراءَ في الْمَمْلَكَةِ نِصْفَها كَعَطِيَّةٍ مِنَ الْمَلِكِ النُّعْمانِ لِفُقَراءِ رَعِيَّتِكَ ؟ يَكْفيني النِّصْفُ وَيَزيدُ . »

فابْتَسَمَ الْمَلِكُ وقالَ لَهُ : « أَذِنْتُ لَكَ ، يا عِصامُ ، ومِنّي قَدْرُ ما تَنازَلْتَ عَنْهُ لِلفُقَراءِ مِنَ الرَّعِيَّةِ . »

وفي يَوْمٍ قَرَّرَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ الخُروجَ عَلى رَأْسِ جَيْشِهِ لِغَزْوَةٍ مِنَ الغَزَواتِ ، فَنادى عِصامًا وقالَ لَهُ : « كَمْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ آخُذَكَ مَعي لِلْحَرْبِ ، يا عِصامُ ، لَكِنَّني سَأَتْرُكُكَ هُنا لِتَرْعى أَهْلي في غِيابي ، فَلَسْتُ بِآمِنٍ لأَحَدٍ غَيْرِكَ . »

قالَ عِصامٌ : « كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَكونَ إِلى جِوارِ مَوْلايَ في الْحَرْبِ ، لَكِنَّ أَمْرَكَ لِي مُطاعٌ . أَطْمَعُ في أَنْ يَعِدَني مَوْلايَ بِأَنْ أَخْرُجَ مَعَهُ في الْمَرَّةِ القادِمَةِ . »

فَوَعَدَهُ النُّعْمانُ بِذَلِكَ ، وخَرَجَ إِلى الحَرْبِ وعادَ مِنْها مُنْتَصِرًا . سَأَلَ الْمَلِكُ أَهْلَهُ فَشَكَروا لَهُ صَنيعَ عِصامٍ ،

ورَأى الْمَلِكُ أَنَّ عِصامًا قَدْ حافَظَ عَلى مَمْلَكَتِهِ وعَلى اسْمِهِ نَظيفًا شَريفًا .

ولَمّا جاءَتْ غَزْوَةٌ أُخْرى ، أَمَرَ المَلِكُ النُّعْمانُ بِأَنْ يَتَوَلّى عِصامٌ أَمْرَ سَرِيَّةِ القَلْبِ في جَيْشِهِ ؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ هُوَ في أُمورِ النِّزالِ . والْتَحَمَ الجَيْشانِ ؛ فَكانَ عِصامٌ فارِسًا مِغْوارًا ، يَشُقُّ صُفوفَ العَدُوِّ بِبَسالَةٍ وجُرْأَةٍ ، ويُقاتِلُ بِسَيْفِهِ قِتالَ الأَبْطالِ حَتّى انْتَصَرَ جَيْشُ النُّعْمانِ .

وَزَّعَ الْمَلِكُ الغَنائِمَ ، وأَعْطى عِصامًا جُزْءًا كَبيرًا مِنْها ، وقالَ لَهُ : « يا عِصامُ ، إِنَّني أَهَبُكَ مُلْكَ الْقَوْمِ الَّذينَ انْتَصَرْنا عَلَيْهِمُ اليَوْمَ ، لا عَنْ مِنْحَةٍ ، لَكِنَّكَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُثْبِتَ أَنَّكَ سَيِّدٌ وخَيْرُ مَنْ يَصْلُحُ لِلمُلْكِ . »

فَشَكَرَ عِصامٌ الْمَلِكَ النُّعْمانَ ، فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ : « إِنَّ الشَّرَفَ الَّذي أَضْفَيْتَهُ عَلى نَفْسِكَ هُوَ مِنْ صَنيعِكَ أَنْتَ . لَمْ تَكُنْ عِظامِيًّا تَفْخَرُ بِعِظامِ أَجْدادِكَ وشَرَفِ أَسْلافِكَ ، بَلِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُسَوِّدَ نَفْسَكَ بِحُسْنِ خُلُقِكَ وجَميلِ

صَنيعِكَ . »

وصارَ عِصامٌ مَلِكًا ، فَقالَ فيهِ البَعْضُ :

نَفْسُ عِصام سَوَّدَتْ عِصاما
وعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإِقْداما
وصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُماما

أَصْبَحَ عِصامٌ مَثَلاً ، فَصارَ يُضْرَبُ لِمَنْ نالَ شَرَفًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ مَوْروثٍ عَنْ آبائِهِ ، ونَقيضُهُ العِظامِيُّ الَّذي وَرِثَ الشَّرَفَ عَنْ سُلَفائِهِ ، نِسْبَةً إِلى عِظامِ أَجْدادِهِ ، فَيَقولونَ لِمَنْ يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ « عِصامِيّ » ، ولِمَنْ يَفْتَخِرُ بِأَجْدادِهِ « عِظامِيّ » .

إِنَّ غَدًا لِناظِرِهِ قَريبُ

كانَ المَلِكُ النُّعْمانُ بْنُ المُنْذِرِ ، مَلِكًا غَريبَ الأَطْوارِ ، يَتَفاءَلُ يَوْمًا ويَتَشاءَمُ آخَرَ . كانَ لَهُ يَوْمانِ : يَوْمُ البُؤْسِ ويَوْمُ النَّعيمِ . يَصْحو مِنْ نَوْمِهِ وقَدْ أَزْعَجَهُ حُلْمٌ أَوْ خاطِرٌ ، أَوْ نامَ مُتَعَكِّرَ المِزاجِ ، أَوْ لَمْ يَنَلْ قِسْطًا وافِرًا مِنَ الرّاحَةِ ، فَيَقولُ لِنَفْسِهِ :

« هَذا يَوْمُ بُؤْسٍ . »

وكُلُّ مَنْ يَسوقُهُ حَظُّهُ لِرُؤْيَةِ النُّعْمانِ في ذَلِكَ اليَوْمِ تَكونُ نِهايَتُهُ ، يُعْدِمُهُ دونَ مُحاكَمَةٍ أَوْ جَريرَةٍ . فَإِذا نامَ وسَعَدَ في نَوْمَتِهِ ، أَوْ رَأَى حُلْمًا حَسِبَهُ خَيْرًا ؛ فَإِنَّهُ يَصْحو ويَقولُ :

« إنَّ ذَلِكَ اليَوْمَ سَيَكونُ يَوْمَ النَّعيمِ . » ومَنْ أَوْقَعَهُ حَظُّهُ الحَسَنُ لِرُؤْيَةِ المَلِكِ النُّعْمانِ في ذَلِكَ اليَوْمِ ، فَإِنَّهُ يَنالُ فَوْقَ كُلِّ ما يَطْلُبُهُ مِنَ الْمَلِكِ ، ويُجْزِلُ لَهُ العَطاءَ أَضْعافًا .

سافَرَ الشّاعِرُ عَبيدُ بْنُ الأَبْرَصِ مِنْ بَلَدِهِ قاصِدًا صَديقَهُ الْمَلِكَ النُّعْمانَ ، يُدَبِّجُ قَصيدَةً لِمَدْحِهِ ، فَقَدْ رَبَطَتْهُما الصَّداقَةُ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ، وكانَ مِنْ خاصَّةِ الْمَلِكِ . وَصَلَ ابْنُ الأَبْرَصِ إلى قَصْرِ النُّعْمانِ يَطْلُبُ لِقاءَهُ ، وكانَ ذَلِكَ اليَوْمُ مِنْ أَيّامِ البُؤْسِ في حَياةِ النُّعْمانِ .

دَخَلَ الشّاعِرُ عَلى صَديقِهِ الْمَلِكِ ، فَقالَ لَهُ النُّعْمانُ بْنُ الْمُنْذِرِ :

« وَدِدْتُ لَوْ لَقيتَنا غَيْرَ اليَوْمِ ، تَمَنَّ ما شِئْتَ غَيْرَ نَفْسِكَ . »

قالَ عَبيدٌ لِلمَلِكِ : « لا أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسي ، يا مَوْلايَ . »

فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ النُّعْمانُ : « لا سَبيلَ إلى ذَلِكَ .

أَنْشِدْني مِنْ شِعْرِكَ . »

فَقالَ عَبيدٌ : « حالَتِ الغُصَّةُ دونَ أَنْ أَقْرِضَ الشِّعْرَ ، يا مَوْلايَ . »

سَأَلَهُ النُّعْمانُ عَنْ حالِهِ وأَوْلادِهِ وسَفَرِهِ فَقالَ عبيدٌ :

« وَدَّعْتُهُمْ و وَعَدْتُهُمْ أَنْ أَعودَ مُحَمَّلاً بالخَيْراتِ مِنْ فَضْلِ كَرَمِ مَليكي النُّعْمانِ . لَمْ أَكُنْ أَدْري أَنَّ الْمَلِكَ النُّعْمانَ سَوْفَ يَقْتُلُ صَديقَهُ . لَنْ أَرى أَهْلي . »

قالَ النُّعْمانُ : « عَلِمْتَ ، يا عَبيدُ ، أَنَّهُ لا نُكوصَ في يَوْمِ البُؤْسِ . تَمَنَّ ما شِئْتَ . »

فَكَّرَ عَبيدٌ وقالَ لِلمَلِكِ : « هَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أُسافِرَ إلى أَوْلادي وأَهْلي فَأُوَدِّعَهُمْ ، ثُمَّ أَعودَ لِتَقْتُلَني كَما تَشاءُ ؟ »

قالَ الْمَلِكُ : « عَلِمْتَ ، يا عبيدُ ، أَنَّ هَذا غَيْرُ مُمْكِنٍ . »

قالَ الشّاعِرُ وهُوَ يَرى تَصْميمَ النُّعْمانِ عَلى قَتْلِهِ :

« هَلْ أَبْحَثُ عَنْ رَجُلٍ يَضْمَنُ كَلِمَتي بِأَنْ أَعودَ إِلَيْكَ

خِلالَ أَرْبَعينَ يَوْمًا ، فَإِنْ لَمْ أَعُدْ يُقْتَلْ بَدَلاً عَنّي ؟ »

فَضَحِكَ النُّعْمانُ وسَأَلَ : « وهَلْ هُناكَ رَجُلٌ يَقْبَلُ ذَلِكَ ؟ »

قالَ عَبيدُ بْنُ الأَبْرَصِ : « دَعْني أُحاوِلُ ، يا مَوْلايَ . »

فَكَّرَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ بْنُ الْمُنْذِرِ قَليلاً ، فَوَجَدَ أَنَّهُ حَلٌّ مُناسِبٌ يُرْضي صَديقَهُ عَبيدًا ، فَوافَقَ ، ومَنَحَهُ ساعَةً يَبْحَثُ فيها عَنْ رَجُلٍ يَدْخُلُ السِّجْنَ أَرْبَعينَ يَوْمًا ، فَإِنْ عادَ عَبيدٌ في مَوْعِدِهِ أَطْلَقَ سَراحَهُ وأَعْدَمَ عَبيدًا ، وإِنْ لَمْ يَعُدْ عَبيدٌ يَقْتُلِ الرَّجُلَ مَكانَهُ .

تَأَكَّدَ النُّعْمانُ أَنَّها وَسيلَةٌ طَيِّبَةٌ لِمَنْحِ صَديقِهِ عَبيدِ الفُرْصَةَ لِكَي يَفِرَّ مِنَ القَتْلِ ، فَلَقَدْ كانَ كارِهًا أَنْ يَقْتُلَ صاحِبَهُ ، لَكِنَّهُ يَوْمُ البُؤْسِ ، والْتِزامُ النُّعْمانِ بِتَنْفيذِهِ مَهْما كانَ الأَمْرُ أَوِ الشَّخْصُ .

خَرَجَ عَبيدُ بْنُ الأَبْرَصِ مِنَ القَصْرِ و وَراءَهُ حارِسانِ ، يَبْحَثُ عَنْ مُجيرٍ لَهُ ، وضامِنٍ لِكَلِمَتِهِ ، فَكانَ يَسْأَلُ القَوْمَ

في الطَّريقِ ، فَيَضْحَكونَ مِنْهُ ويَسْخَرونَ . ورَأَى رَجُلاً يَأْتي إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَنِ الأَمْرِ ، فَشَرَحَ لَهُ عَبيدٌ ما جَرى ، فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ :

« أَنا أَضْمَنُ كَلِمَتَكَ . سَوْفَ أَكونُ رَهينَةً لِمُدَّةِ أَرْبَعينَ يَوْمًا . سافِرْ أَنْتَ فَوَدِّعْ أَهْلَكَ ثُمَّ تَعالَ . »

بَكى عَبيدٌ وهُوَ يَشْكُرُ الرَّجُلَ . وذَهَبا إِلى النُّعْمانِ ، فَقالَ الْمَلِكُ يَسْأَلُ الرَّجُلَ : « ما اسْمُكَ ، يا رَجُلُ ؟ »

قالَ : « قُرادُ بْنُ أَجْدَعَ ، يا مَوْلايَ . رَأَيْتُ البائِسَ في مُصيبَةٍ فَأَجَرْتُهُ . أُسْجَنُ بَدَلاً عَنْهُ أَرْبَعينَ يَوْمًا حَتّى يَعودَ . »

قالَ لَهُ النُّعْمانُ : « أَتَدْري ماذا أَنا فاعِلٌ بِكَ إِذا لَمْ يَعُدْ في مَوْعِدِهِ ؟ »

قالَ قُرادٌ : « نَعَمْ ، يا مَوْلايَ ، أُقْتَلُ بَدَلاً عَنْهُ . »

سَأَلَهُ الْمَلِكُ : « أَوَ رَضيتَ ؟ أَمامَهُ الفُرْصَةُ أَنْ يَهْرُبَ

ويُنقِذَ عُنُقَهُ . »

قالَ قُرادُ بْنُ أَجْدَعَ : « هِيَ رَقَبَتُهُ ، وهِيَ كَلِمَتُهُ . عَلَيْهِ أَنْ يَخْتارَ بَيْنَهُما . ولَقَدْ رَضيتُ كَلِمَتَهُ و وَعْدَهُ . »

أَمَرَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ بِأَخْذِ قُرادِ بْنِ أَجْدَعَ إِلى السِّجْنِ ، وإِطْلاقِ سَراحِ عَبيدِ بْنِ الأَبْرَصِ . وحَمَّلَهُ بالمالِ والهَدايا وأَعْطاهُ حِصانَيْنِ أَصيلَيْنِ وقالَ لَهُ : « اِذْهَبْ إِلى أَهْلِكَ ، يا عَبيدُ . »

فَقالَ ابْنُ الأَبْرَصِ لِلمَلِكِ : « أَرْبَعونَ يَوْمًا ، يا مَوْلايَ . »

فابْتَسَمَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ ، وهُوَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ عَبيدًا قَدْ نالَ فُرْصَتَهُ لِلهَرَبِ . خَرَجَ عَبيدٌ فامْتَطى صَهْوَةَ جَوادِهِ ، و رَبَطَ الثّاني خَلْفَهُ ، يُسْرِعُ عائِدًا إِلى بَلَدِهِ .

مَرَّتِ الأَيّامُ ، وقُرادُ بْنُ أَجْدَعَ وَديعَةٌ في السِّجْنِ ، والنُّعْمانُ يَتَعَجَّلُ الأَيّامَ لِتَمْضِيَ ، ويَتَمَنّى أَنْ لا يَعودَ عَبيدٌ حَتّى يَقْتُلَ الْمَلِكُ قُرادًا بَدَلاً عَنْ صَديقِهِ .

وجاءَتِ اللَّيْلَةُ الأَخيرَةُ مِنَ الْمُهْلَةِ ، فاسْتَدْعى الْمَلِكُ الرَّهينَةَ قُرادَ بْنَ أَجْدَعَ مِنَ السِّجْنِ ، وقالَ لَهُ :

« مَضَتِ الأَيّامُ وجاءَ وقْتُ قَتْلِكَ . لَمْ يَعُدْ عَبيدٌ . »

فَقالَ قُرادٌ : « يا مَوْلايَ ، لا زالَ هُناكَ اللَّيْلُ . مَوْعِدُ عَبيدٍ في فَجْرِ الغَدِ . »

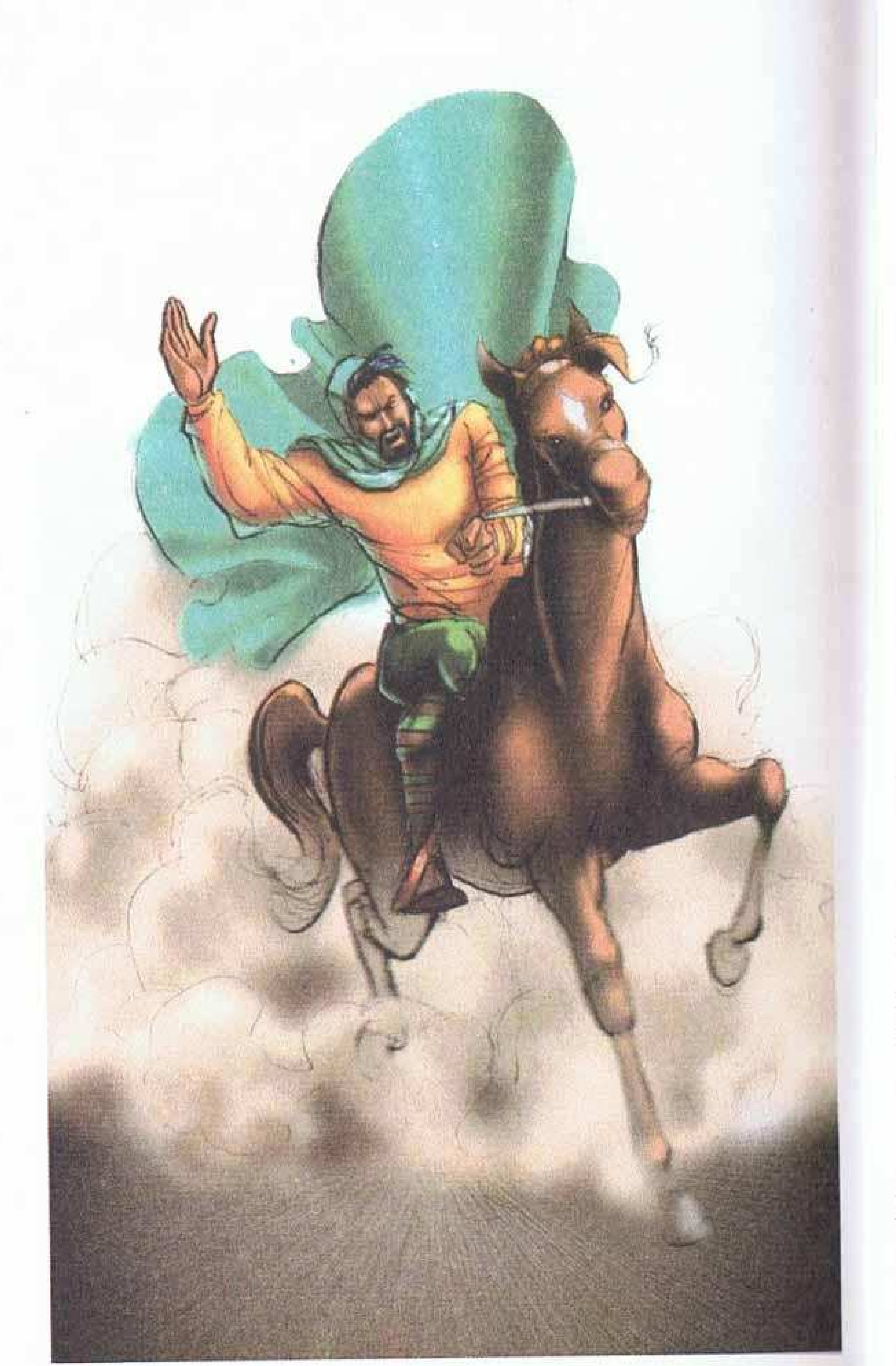
فَقالَ الْمَلِكُ : « وهَلْ تَظُنُّ عَبيدَ بْنَ الأَبْرَصِ يَعودُ في مَوْعِدِهِ أَيُّها الأَحْمَقُ ؟ سَوْفَ أُعْدِمُكَ . » فَأَنْشَدَ قُرادُ بْنُ أَجْدَعَ يَقولُ لِلمَلِكِ :

فإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذا اليَوْمِ وَلّى   فَإِنَّ غَدًا لِناظِرِهِ قَريبٌ

قالَ لَهُ الْمَلِكُ :

« نَعَمْ ، إِنَّ غَدًا لِناظِرِهِ قَريبٌ . فَلْنَنْتَظِرْ إِلى الصَّباحِ ولَسَوْفَ أَقْتُلُكَ . »

عادَ قُرادُ بْنُ أَجْدَعَ إِلى سِجْنِهِ ، وجاءَ الفَجْرُ ، وبَدَأَتِ الجَلَبَةُ بَيْنَ الجُنودِ اسْتِعْدادًا لإِعْدامِ قُرادِ بْنِ أَجْدَعَ . ورَأى



القَوْمُ عَلى البُعْدِ فارِسًا يَجْري بِسُرْعَةٍ ، والغُبارُ يَتطايَرُ حَوْلَهُ مِنْ شِدَّةِ عَدْوِهِ ، يَصْرُخُ في القَوْمِ ويُنادي :

« أَنا عَبيدُ بْنُ الأَبْرَصِ . »

وَصَلَ عَبيدٌ ، فَسارَعَ بالقَفْزِ مِنْ فَوْقِ حِصانِهِ وهُوَ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ لِلمَلِكِ النُّعْمانِ ، الَّذي نَظَرَ إِلَيْهِ وقالَ لَهُ : « لماذا عُدْتَ أَيُّها الأَحْمَقُ ؟ كِدْتُ أَقْتُلُ هَذا بَدَلاً عَنْكَ . »

قالَ عَبيدٌ : « واللهِ ما أَرَدْتُ أَنْ أَكونَ أَقَلَّ مِنْ قُرادِ بْنِ أَجْدَعَ شَهامَةً و وَفاءً بِعَهْدي لَهُ ، وكَفانا ما تَحَمَّلْناهُ ، يا مَوْلايَ ، مِنْ جَريرَةِ يَوْمِ بُؤْسِ الْمَلِكِ النُّعْمانِ بْنِ الْمُنْذِرِ ، الَّذي سَوْفَ يَقْتُلُ صَديقَ عُمْرِهِ ، وسَجَنَ رَجُلاً كَريمًا كانَ الْمَلِكُ يَوَدُّ أَنْ يَقْتُلَهُ . »

سَكَتَ الجَمْعُ ، فَأَرْدَفَ عَبيدٌ قائِلاً : « ها هُوَ ذا صَديقُكَ ، يا مَوْلايَ ، قَدْ بَرَّ بِوَعْدِهِ ، فاقْتُلْني ، وأَطْلِقْ سَراحَ هَذا الرَّجُلِ الكَريمِ . »

أَفاقَ الْمَلِكُ النُّعْمانُ بْنُ الْمُنْذِرِ مِنْ وَهْمِ البُؤْسِ

والنَّعيمِ ، وشَعَرَ بالخَجَلِ أَمامَ صَديقِهِ عَبيدٍ ، فَقالَ :

« لَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكُما ، ولَسَوْفَ أَجْزِلُ لَكُما العَطاءَ . لَنْ أَكونَ أَقَلَّ مِنْكُما خَيْرًا أَبَدًا . فَمُنْذُ الآنَ لَنْ يَكونَ هُناكَ يَوْمُ بُؤْسٍ لِلنُّعْمانِ : إِمّا يَوْمُ سَعْدٍ ، وإِمّا يَوْمٌ يَمُرُّ كَبَقِيَّةِ الأَيّامِ . »

وصارَ قَوْلُ قُرادِ بْنِ أَجْدَعَ « إِنَّ غَدًا لِناظِرِهِ قَريبٌ » مَثَلاً يُضْرَبُ لانْتِظارِ الأَجَلِ المُحَدَّدِ ، وعَدَمِ اسْتِعْجالِ الأَمْرِ .

صَفْقَةٌ لَمْ يَشْهَدْها حاطِبٌ

كانَ « حاطِبُ بْنُ أَبي بَلْتَعَةَ » حازِمًا ولَبيبًا ، لَهُ في قَوْمِهِ مَنْزِلَةٌ خاصَّةٌ لِحِكْمَتِهِ وحِلْمِهِ . كانَتْ آراؤُهُ دائِمًا تَجِدُ القَبولَ لَدى كُلِّ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ ، ويَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، كانَ القَوْمُ يَسْتَشيرونَ « حاطِب » في كُلِّ أُمورِهِمْ ، فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْ إِبْداءِ رَأْيِهِ بِحِكْمَةٍ ورَوِيَّةٍ .

دَخَلَ إِلى دِيارِ القَوْمِ يَوْمًا رَجُلٌ يَقودُ ناقَةً ، وعَلَيْها بِضاعَةٌ يَوَدُّ بَيْعَها ، فَأَناخَ النّاقَةَ ، وعَرَضَ بِضاعَتَهُ عَلى واحِدٍ مِنَ التُّجّارِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ ثَمَنِها فَقالَ لَهُ ما يَطْلُبُهُ ، فَبَعَثَ الرَّجُلُ إِلى حاطِبٍ ، يَسْأَلُهُ الرَّأْيَ والمَشورَةَ في البِضاعَةِ وثَمَنِها . نَظَرَ حاطِبٌ إِلى البِضاعَةِ وقالَ لِلتّاجِرِ :

« إِنَّها مِنَ الشّامِ . »

فَأَمَّنَ الرَّجُلُ عَلى كَلامِ حاطِبٍ . فَقالَ لَهُ حاطِبٌ :

« إِنَّها مائَتا ذِراعٍ مِنَ الحَريرِ الدِّمَشْقِيِّ . »

قالَ التّاجِرُ : « نَعَمْ . كَيْفَ عَرَفْتَ ، يا رَجُلُ ؟ »

قالَ حاطِبٌ : « لَقَدْ تَعَلَّمْتُ ذَلِكَ مِنْ أَسْفاري وخِبْرَتي بِعُمْري الَّذي أَحْمِلُهُ عَلى رَأْسي . اشْتَرَيْتَها بِمائَتَيْ دِرْهَمٍ ، وتَكْسِبُ فَوْقَها مائَةً لَكَ ، ومائَةً أُخْرى لِسَفَرِكَ وراحِلَتِكَ . أَرْبَعُمائَةِ دِرْهَمٍ فَقَطْ ثَمَنٌ عادِلٌ . لِماذا تَطْلُبُ سِتَّمائَةٍ ؟ »

قالَ التّاجِرُ : « قَبِلْتُ راضِيًا ما حَكَمْتَ بِهِ . »

واشْتَرى التّاجِرُ البِضاعَةَ بِالثَّمَنِ الَّذي حَدَّدَهُ حاطِبٌ .
ومَشى البائِعُ سَعيدًا ، وبَقِيَ الشّاري راضِيًا .

أَصْبَحَ حاطِبٌ وَسْطَ القَوْمِ هُوَ الَّذي يَشْهَدُ كُلَّ ما يُبْرَمُ مِنِ اتِّفاقٍ في بَيْعٍ أَوْ شِراءٍ ، يَقْبَلونَ حُكْمَهُ كَأَمْرٍ مُسَلَّمٍ

بِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَرَفوا أَنَّ حُكْمَهُ العادِلَ لَنْ يُضيرَ بائِعًا أَوْ مُشْتَرِيًا . لَكِنَّ الرَّجُلَ « ابْنَ شاهين » كانَ مِنَ الحاسِدينَ لِحاطِبٍ . يَعيشُ بَيْنَ القَوْمِ لَكِنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَبَدًا أَنْ يَأْخُذَ رَأْيَ حاطِبٍ في أُمورِهِ ، بَلْ كانَ يُسَفِّهُ آراءَهُ عَلى الدَّوامِ .

قَرَّرَ « ابْنُ شاهينٍ » يَوْمًا أَنْ يُثْبِتَ لِقَوْمِهِ أَنَّ « حاطب » لَيْسَ هُوَ الوَحيدَ الحاذِقَ في شُئونِ التِّجارَةِ بَيْنَ قَوْمِهِ ، فَقَرَّرَ أَنْ يَخْرُجَ لِلتِّجارَةِ وَحْدَهُ . رَكِبَ راحِلَتَهُ وأَخَذَ مالَهُ ، وقَرَّرَ أَنْ يُسافِرَ إِلى الشّامِ لِشِراءِ الحَريرِ والبِضاعَةِ بِسِعْرٍ رَخيصٍ ، ويَعودَ إِلى قَوْمِهِ لِيَبيعَها لَهُمْ .

سافَرَ « ابْنُ شاهينٍ » ، فَوَجَدَ عَلى مَشارِفِ الشّامِ قافِلَةً تَحْمِلُ البَضائِعَ ، فاسْتَوْقَفَها يَسْأَلُ إِنْ كانَ لَدَيْهِمْ بِضاعَةٌ يَوَدّونَ بَيْعَها لَهُ . قَدَّرَ أَنَّ اسْتِكْمالَ سَفَرِهِ إِلى الشّامِ والْمُكوثَ بِها سَوْفَ يَزيدُ نَفَقاتِهِ ، أَمّا إِذا اشْتَرى وهُوَ عَلى بُعْدٍ مِنَ الشّامِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَقْتَصِدُ في نَفَقاتِهِ فَيَزيدُ

مَكْسَبُهُ .

عَرَضَ عَلَيْهِ أَحَدُ التُّجّارِ حِمْلَ ناقَةٍ مِنَ الحَريرِ فَسَأَلَهُ « ابْنُ شاهين » : « كَمْ ذِراعًا مَعَكَ مِنَ الحَريرِ ؟ »

فَقالَ الرَّجُلُ : « مائَتا ذِراعٍ مِنْ أَفْخَرِ أَنْواعِ الدِّمَقْسِ . »

سَأَلَهُ « ابْنُ شاهينٍ » عَنْ ثَمَنِ الذِّراعِ فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ :

« دِرْهَمٌ وَنِصْفٌ لِلذِّراعِ . »

فَقالَ لَهُ « ابْنُ شاهينٍ » وَقَدْ تَذَكَّرَ « حاطِب » :

« لَقَدِ اشْتَرَيْتَها بِمائَتَيْ دِرْهَم ، وَأَنا أَشْتَريها مِنْكَ بِهَذا السِّعْرِ . آخُذُ كُلَّ ما فَوْقَ هَذِهِ النّاقَةِ بِمائَتَيْ دِرْهَمٍ . هَلْ تَقْبَلُ ؟ »

فَقَبِلَ التّاجِرُ عَلى الفَوْرِ . تَناوَلَ الدَّراهِمَ مِنْهُ وَسَلَّمَهُ الحَريرَ الَّذي كانَ فَوْقَ النّاقَةِ ، وَمَشى « ابْنُ شاهينٍ » عائِدًا إلى قَوْمِهِ وَالفَرْحَةُ تَتَطايَرُ مِنْهُ .

دَخَلَ « ابْنُ شاهينٍ » الدِّيارَ ، يُعْلِنُ عَنْ بِضاعَتِهِ الَّتي

اشْتَراها مِنْ أَفْخَرِ أَنْواعِ الحَريرِ ، الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ ، فَتَجَمَّعَ التُّجّارُ حَوْلَهُ ، وَجاءوا بِحاطِبٍ ، قالَ ابْنُ شاهينٍ :

« مائَتا ذِراعٍ مِنَ الحَريرِ الفاخِرِ مَنْ يَشْتَري ؟ »

فَقالَ حاطِبٌ يُخاطِبُهُ : « يا ابْنَ شاهينٍ ، إِنَّ ما مَعَكَ مائَةُ ذِراعٍ فَقَطْ لا مائَتانِ . »

فَصَرَخَ فيه « ابْنُ شاهينٍ » مُكَذِّبًا ، فاسْتاءَ القَوْمُ ، وَأَتَوا بِالمِقياسِ يَقيسونَ الحَريرَ ، فَإِذا بِهِ مائَةُ ذِراعٍ فَقَطْ . تَفَصَّدَ ابْنُ شاهينٍ عَرَقًا ، يُقْسِمُ أَنَّهُ اشْتَراها مِنَ التّاجِرِ عَلى أَنَّها مائَتا ذِراعٍ . سَأَلَهُ التُّجّارُ عَنِ الثَّمَنِ فَطَلَبَ « ابْنُ شاهينٍ » ثَلاثَمائَةِ دِرْهَمٍ .

قالَ لَهُ القَوْمُ : « كَيْفَ هَذا ، يا ابْنَ شاهين ؟ »

فَأَخَذَ يَشْرَحُ لَهُمْ أَنَّهُ اشْتَراها عَلى أَنَّها مائَتا ذِراعٍ ، وَأَنَّ التّاجِرَ خَدَعَهُ فَباعَ لَهُ مائَةً بَدَلاً مِنْ مِئَتَيْنِ . قالَ لَهُ حاطِبٌ :

« أَ تَدْري ، يا ابْنَ شاهين ، أَنَّ ما مَعَكَ مِنْ حَريرٍ صِنْفٌ رَدِيْءٌ ، يَنْقَطِعُ أَثْناءَ حِياكَتِهِ . فَإِذا غُسِلَ بالماءِ تَفَتَّحَتْ مَسامُهُ وبُلِيَتْ خُيوطُهُ . لَقَدْ غُبِنْتَ في البَيْعَةِ ، يا ابْنَ شاهينٍ . »

جَلَسَ ابْنُ شاهينَ يَنْعي حَظَّهُ العاثِرَ الَّذي أَوْقَعَهُ فيهِ طَمَعُهُ ، وانْصَرَفَ النَّاسُ عَنْهُ ، لَمْ يَشْتَروا بِضاعَتَهُ . قالَ واحِدٌ مِنْهُمْ : « صَفْقَةٌ لَمْ يَشْهَدْها حاطِبٌ . »

فَصارَ ذَلِكَ مَثَلاً يُضْرَبُ لِكُلِّ أَمْرٍ يُبْرَمُ دونَ أَنْ يَحْضُرَهُ الخُبَراءُ فيهِ .

إِنَّ المَقْدِرَةَ تُذْهِبُ الحَفيظَةَ

كانَ أَحَدُ شُيوخِ قُرَيْشٍ مِمَّنْ عُرِفوا بالشَّجاعَةِ والكَرَمِ ، قَدْ تَمَلَّكَهُ الغَضَبُ مِنْ أَعْرابِيٍّ أَساءَ إِلَيْهِ ، فَدَعاهُ لِلمُبارَزَةِ واتَّفَقا عَلى المَوْعِدِ . لَكِنَّ الأَعْرابِيَّ لَمْ يَحْضُرْ إِلَيْهِ في المَوْعِدِ المُحَدَّدِ ، بَلْ بَعَثَ إِلَيْهِ رَسولاً يَقولُ لَهُ :

« عَدُوُّكَ يُبْلِغُكَ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ شَيْخًا لا تَقْدِرُ عَلى النِّزالِ ، وهُوَ يَأْبى أَنْ يَقْتُلَ شَيْخًا ضَعيفًا . »

فاشْتَدَّ حَنَقُ الشَّيْخِ القُرَشِيِّ عَلى عَدُوِّهِ ، وأَقْسَمَ لَيَظْفَرَنَّ بِهِ ، ويَنْتَقِمَ مِنْهُ جَزاءَ ما قالَهُ عَلى لِسانِ رَسولِهِ الَّذي بَعَثَ بِهِ لِيُقَلِّلَ مِنْ شَأْنِهِ في قَوْمِهِ .

أَعَدَّ الشَّيْخُ جَوادَهُ ، وأَخَذَ مَعَهُ بَعْضَ الماءِ والزّادِ ، وأَعَدَّ سَيْفَهُ ، فَحاوَلَ قَوْمُهُ أَنْ يَمْنَعوهُ عَنِ الخُروجِ وَحْدَهُ إِلى الصَّحْراءِ لِلبَحْثِ عَنِ الرَّجُلِ فَقالَ لَهُمْ :

« أَقْسَمْتُ أَنْ لا يَخْرُجَ مَعِيَ أَحَدٌ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ لِيَ وَحْدي ، ولأُرِيَنَّهُ كَيْفَ يُقاتِلُ هَذا الَّذي اتَّهَمَهُ بالضَّعْفِ وعَدَمِ القُدْرَةِ عَلى النِّزالِ . »

وحاوَلَ أَبْناءُ الرَّجُلِ وإِخْوَتُهُ أَنْ يَثْنوهُ عَنْ عَزْمِهِ فَأَبى ، وسارَ وَحْدَهُ يَضْرِبُ في الصَّحْراءِ بَحْثًا عَنْ عَدُوِّهِ .

رَأى الشَّيْخُ القُرَشِيُّ عَدُوَّهُ يَكْمُنُ في الصَّحْراءِ ، فَناداهُ :

« تَعالَ إِلَيَّ أَيُّها الجَبانُ . رَفَضْتَ أَنْ تَأْتِيَ فَجِئْتُكَ أَنا . »

فَخَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ مَكْمَنِهِ وهُوَ يَضْحَكُ وكانَ مَعَهُ رَجُلاً آخَرَ ، فَهَجَما عَلى الشَّيْخِ الَّذي أَخْرَجَ سَيْفَهُ في لَمْحِ البَصَرِ ، وأَطارَ رَأْسَ رَفيقِ عَدُوِّهِ . ثُمَّ قَفَزَ مِنْ فَوْقِ حِصانِهِ في خِفَّةِ النَّمِرِ ، ودَعا عَدُوَّهُ لِلمُبارَزَةِ .

بَدَأَ النِّزالُ ، مُبارَزَةً لا هَوادَةَ فيها ، اسْتَعْمَلَ فيها العَدُوُّ كُلَّ الحِيَلِ لِلنَّيْلِ مِنَ الشَّيْخِ ، لَكِنَّ القُرَشِيَّ كانَ ماهِرًا في النِّزالِ بِسَيْفِهِ رَغْمَ كِبَرِ سِنِّهِ . فاسْتَطاعَ بِمَهارَتِهِ أَنْ يُطيرَ سَيْفَ عَدُوِّهِ مِنْ يَدِهِ ، وأَسْقَطَهُ عَلى الأَرْضِ ، و وَضَعَ السَّيْفَ في عُنُقِهِ ، وقالَ لَهُ : « أَ لَسْتُ بِقادِرٍ عَلى أَنْ أَقْتُلَكَ ، يا هَذا ؟ »

فَرَدَّ الفَتى وهُوَ يَرْتَعِدُ : « بَلى ، يا سَيِّدي . »

فَسَأَلَهُ الشَّيْخُ : « هَلْ لا زِلْتَ تَراني غَيْرَ قادِرٍ عَلى المُبارَزَةِ ، يا فَتًى ؟ »

فَقالَ النّائِمُ عَلى الأَرْضِ : « لا ، يا سَيِّدي . نِعْمَ المُقاتِلُ أَنْتَ ، شَهِدْتُ لَكَ . »

نَظَرَ الشَّيْخُ نَظْرَةَ إِشْفاقٍ إِلى الفَتى الرّاقِدِ فَوْقَ الأَرْضِ يَرْتَعِدُ خَوْفًا لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ بِهِ الشَّيْخُ ، ونَظَرَ الفَتى إِلى الشَّيْخِ نَظْرَةَ اسْتِعْطافٍ واسْتِرْحامٍ ، فَضَحِكَ الشَّيْخُ ، وقالَ لَهُ : « سَوْفَ أُقَيِّدُكَ وآخُذُكَ إِلى دِياري أَسيرًا . »

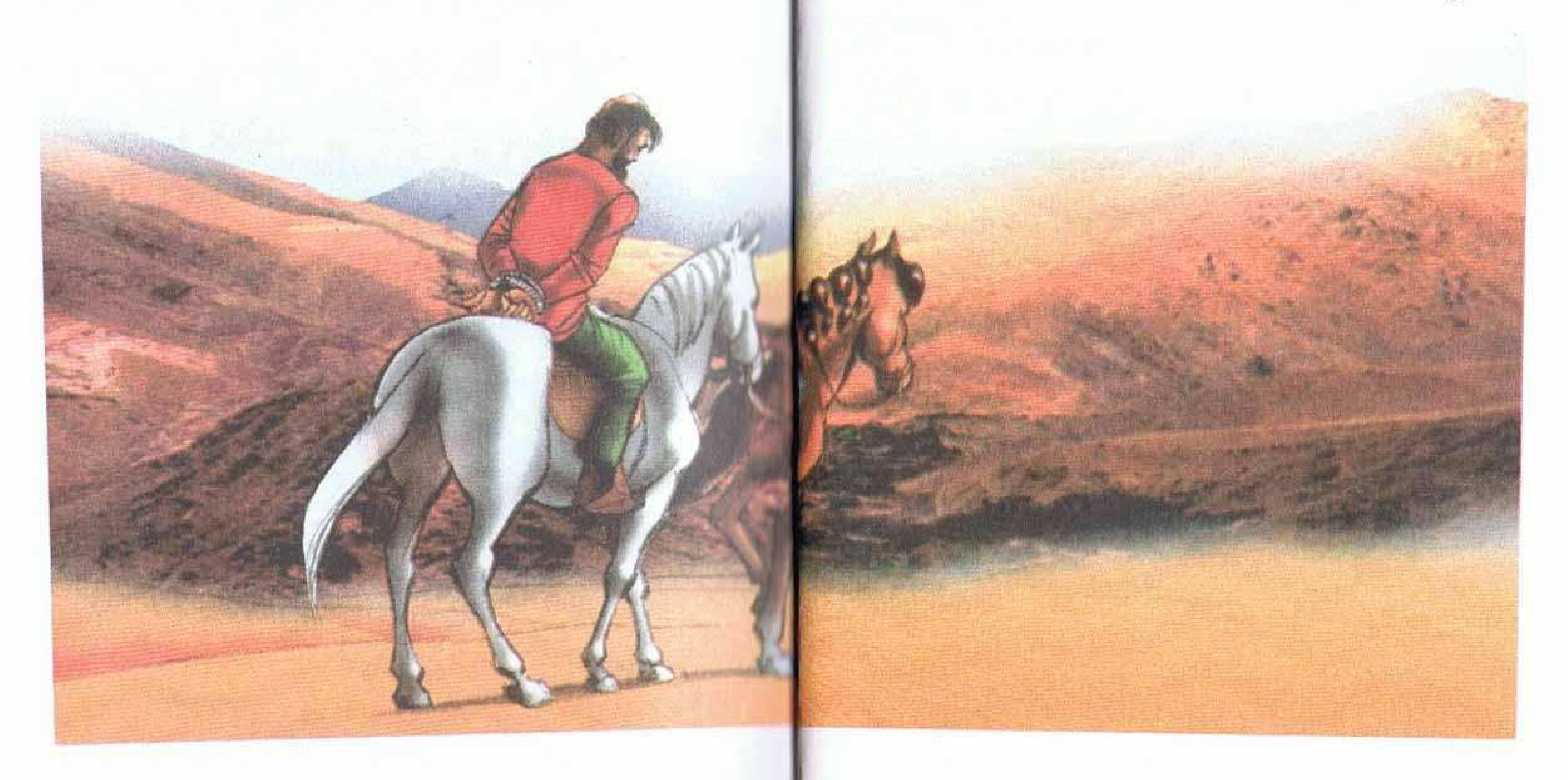
وأَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، وقَيَّدَهُ بِحَبْلٍ غَليظٍ ، وأَمَرَهُ أَنْ يَمْتَطِيَ فَرَسَهُ ، ويَسيرَ وَراءَهُ ، وقَدْ أَمْسَكَ الشَّيْخُ بِمِقْوَدِ جَوادِ عَدُوِّهِ ، حَتّى عادَ إِلى قَوْمِهِ بالأَسيرِ .

التَفَّ القَوْمُ حَوْلَ الشَّيْخِ ، وأَنْزَلوا عَدُوَّهُ يُريدونَ أَنْ يَفْتِكوا بِهِ ، فَمَنَعَهُمُ الشَّيْخُ ، وقالَ لَهُمْ :

« إِنَّ المَقْدِرَةَ عَلى الشَّيْءِ تُذْهِبُ بالغَضَبِ . يا قَوْمُ ، لَقَدْ نازَلْتُهُ فَهَزَمْتُهُ ، وجِئْتُ بِهِ أَمامَكُمْ أُعْلِنُ أَنَّني قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ . »

ثارَ القَوْمُ ، فَقالَ شَيْخُهُمْ : « لَمْ تَعُدْ بِيَ رَغْبَةٌ في الانْتِقامِ مِنْهُ . إِنَّ المَقْدِرَةَ تُذْهِبُ الحَفيظَةَ . »

وصارَ ذَلِكَ مَثَلاً يُضْرَبُ في أَنَّ المَقْدِرَةَ عَلى الشَّيْءِ تُذْهِبُ الغَضَبَ .



إنْ ظَلَمَكَ قَوْمُكَ لا يَظْلِمُكَ القَمَرُ

كانَ مِنْ عادَةِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ في الجاهِلِيَّةِ ، عَقْدُ مَجالِسِ السَّمَرِ فَيوقِدونَ النّارَ ، ويَجْلِسونَ حَوْلَها يَصْطَلونَ ويَسْتَدْفِئونَ ، ويَتَسامَرونَ بالشِّعْرِ والزَّجَلِ أَوْ بالأَلْغازِ ، يَتَبارَوْنَ في طَرْحِ لُغْزٍ ، يَشْتَرِكُ الجَمْعُ في البَحْثِ عَنْ إجابَتِهِ الصَّحيحَةِ . فَحَياةُ الصَّحْراءِ مَحْدودٌ نَشاطُها ؛ فَهِيَ رَعْيٌ في الصَّباحِ وسَمَرٌ في المَساءِ ، وبَيْنَ كُلِّ حينٍ وآخَرَ صَدٌّ لِهَجْمَةٍ يُغيرُ بها قَوْمٌ عَلى آخَرينَ ، أَوْ إغارَةٌ عَلى آخَرينَ لأَخْذِ الغَنائِمِ مِنْهُمْ .

جَلَسَ رِجالُ إحْدى القَبائِلِ يَسْمُرونَ حَوْلَ النّارِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ ، والسَّماءُ صافِيَةٌ ، والبَدْرُ وَسَطَها يُرْسِلُ بِسَناهُ أَشِعَّةً وكَأَنَّها أَنْهارٌ مِنْ فِضَّةٍ تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ

إلى الأَرْضِ تُنيرُ الظَّلامَ ، تَبْعَثُ بِكُلِّ المَشاعِرِ الدّافِئَةِ إلى القُلوبِ .

قالَ قائِلٌ مِنَ القَوْمِ : « عِنْدَما تَطْلُعُ الشَّمْسُ ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ لَنا أَنْ نَرى القَمَرَ . »

فَقالَ آخَرُ : « لا يَغيبُ القَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ . »

بَدَأَ القَوْمُ في النِّقاشِ ، كُلٌّ يُحاوِلُ إقْناعَ الآخَرِ بِأَنَّهُ عَلى حَقٍّ ، وكُلٌّ مِنَ المُتَعارِضينَ يَكْتَسِبُ أَنْصارًا مِنَ القَوْمِ ، فانْقَسَموا إلى فَريقَيْنِ .

و ازْدادَتْ حِدَّةُ النِّقاشِ بَيْنَهُما ، فَتَراهَنَ الجانِبانِ بالأَمْوالِ ، يَزيدونَ في الرِّهانِ وقيمَتِهِ كُلَّما اشْتَدَّ الجَدَلُ . ارْتَفَعَ صَوْتُهُمْ ، فَصَرَخَ فيهِمْ شَيْخُ القَبيلَةِ وهُوَ في خَيْمَتِهِ ؛ فَقَدْ كانَ مُتْعَبًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَلَمْ يُشارِكِ الجَمْعَ سَمَرَهُمْ ، وفَضَّلَ أَنْ يَبْقى في فِراشِهِ .

نادى الشَّيْخُ أَحَدَ الرِّجالِ وسَأَلَهُ الخَبَرَ فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ :

« إنَّنا قَدْ وَضَعْنا رِهانًا عَلى أَمْرٍ اخْتَلَفْنا فيهِ . »

سأَلَهُ الشَّيْخُ : « وفي أيِّ شَيْءٍ اخْتَلَفْتُمْ ؟ »

قالَ الرَّجُلُ : « يَقولُ قَوْمٌ إنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ فَيُرَى القَمَرُ . وتَقولُ طائِفَةٌ بَلْ يَغيبُ القَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ . »

فَسَأَلَهُ الشَّيْخُ : « مَنْ ذا الَّذي قالَ بِأَنَّ القَمَرَ يُرى بَعْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ ؟ »

فَذَكَرَ الرَّجُلُ اسْمَهُ ، فَطَلَبَ الشَّيْخُ مِنْهُ أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَيْهِ .

جاءَ الرَّجُلُ ، فَقَصَّ عَلى شَيْخِ القَبيلَةِ ما حَدَثَ مِنْ نِقاشٍ ، و ما تَطَوَّرَ إِلَيْهِ الحالُ في الرِّهانِ ، وقالَ لِلشَّيْخِ :

« يا شَيْخَنا ، إِنَّ قَوْمي يَظْلِمونَني . »

فَسَأَلَهُ الشَّيْخُ : « وماذا تَنْوي أَنْ تَفْعَلَ ، هَلْ سَيَظَلُّ الجَمْعُ في انْتِظارِ شُروقِ الشَّمْسِ حَتّى يَتَبَيَّنوا مَنْ مِنْكُما عَلى حَقٍّ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

فَأَمَّنَ الرَّجُلُ عَلى حَديثِ الشَّيْخِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ :

« وماذا أَفْعَلُ غَيْرَ ذَلِكَ ، يا سَيِّدي ؟ لَقَدْ ظَلَمَني قَوْمي . »

فَقالَ الشَّيْخُ : « إذًا فانْظُرْ عِنْدَ الشُّروقِ فَسَوْفَ يَتَبَيَّنُ لَكَ الأَمْرُ ، يا هَذا ، إِنْ ظَلَمَكَ قَوْمُكَ لا يَظْلِمُكَ القَمَرُ . »

وصارَ هَذا القَوْلُ مَثَلاً يُضْرَبُ في الأَمْرِ المَشْهورِ الواضِحِ .

هُمْ كالحَلْقَةِ المُفْرَغَةِ
لا يُدرى أَيْنَ طَرَفاها

يُحْكَى أَنَّ « فاطِمَةَ بِنْتَ الحوثب »، كانَتْ ذاتَ حَسَبٍ ونَسَبٍ في قَوْمِها ، وتَزَوَّجَتْ مِنْ زيادٍ العَبْسي ، فَكانَ النَّسَبُ بَيْنَهُما شَرَفًا عَلى شَرَفٍ ، أَنْجَبا عَلى مَرِّ السِّنينَ سَبْعَةَ أَوْلادٍ مِنَ الذُّكورِ .

شَبَّ الأَوْلادُ في بَيْتٍ كَريمٍ ، تَعَلَّموا فيهِ دَماثَةَ الخُلُقِ وطَيِّبَ الكَلِمِ ، وحُسْنَ الإدْراكِ والفِطْنَةِ . كانوا يَتَلَقَّوْنَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ عَنْ أُمِّهِمْ فاطِمَةَ ، والشَّجاعَةَ والفُروسِيَّةَ عَنْ أَبيهِمُ العَبْسِيِّ .

فاقَ حُبُّ فاطِمَةَ لأَوْلادِها السَّبْعَةِ كُلَّ وَصْفٍ ، فَهِيَ لا

يَهْنَأُ لَها مَأْكَلٌ إلا إذا رَأَتْهُمْ حَوْلَها . ولا يَغْمُضُ لَها جَفْنٌ إلا إذا رَأَتْهُمْ وقَدْ ذَهَبوا جَميعًا إلى فِراشِهِمْ .

عِنْدَما بَلَغَ الأَوْلادُ سِنَّ الرُّجولَةِ ، كانَ السَّبْعَةُ مِنْ نُجَباءِ العَرَبِ ، أَدَبًا وفَصاحَةً وخُلُقًا رَفيعًا ، جَعَلَ أُمَّهُمْ فاطِمَةَ مَرْكَزًا لِحَسَدِ كُلِّ الأُمَّهاتِ . وبَدَأَتِ الأُمُّ تَبْحَثُ لأَوْلادِها عَنْ زَوْجاتٍ صالِحاتٍ مِنْ ذَواتِ الأَصْلِ الكَريمِ ، والنَّسَبِ الطَّيِّبِ ، لِكَي تُزَوِّجَهُمْ ، فَكانَتْ نِساءُ القَوْمِ يَعْرِضْنَ بَناتِهِنَّ عَلى فاطِمَةَ لِكَي تَخْتارَ مِنْهُنَّ ، فَأَوْلادُ فاطِمَةَ هُمْ مَطْمَعُ كُلِّ أُسْرَةٍ لِكَي تَتَزَوَّجَ ابْنَتُها مِنْ أَحَدِ أَوْلادِ فاطِمَةَ .

كانَ لِفاطِمَةَ ، صَديقَةٌ عَزيزَةٌ عَلَيْها ، لَها ابْنَةٌ في سِنِّ الزَّواجِ فَقالَتْ يَوْمًا لِفاطِمَةَ :

« لَقَدْ أَلْمَحْتِ لِيَ ، يا فاطِمَةُ ، أَنَّكِ تُريدينَ تَزْويجَ ابْنَتي لأَحَدِ أَوْلادِكِ . ولَنِعْمَ النَّسَبُ ، يا فاطِمَةُ . »

قالَتْ لَها فاطِمَةُ : « ولَنْ أَجِدَ لابْني امْرَأَةً خَيْرًا مِنَ

ابْنَتِكِ ، ابْنَةِ صَديقَةِ عُمْري . »

فَقالَتْ أُمُّ العَروسِ : « أيُّ أوْلادِكِ أفْضَلُ ، يا فاطِمَةُ ؟»

وسَكَتَتْ فاطِمَةُ لِلَحْظَةٍ ثُمَّ قالَتْ : « إنَّهُ رَبيعٌ . »

ثُمَّ قالَتْ : « لا ، بَلْ عِمارَةُ . »

لَكِنَّها اسْتَدْرَكَتْ تَقولُ : « لا ، إنَّهُ عَمْرٌو . »

ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِرَأْسِها وقالَتْ :

« ثَكِلْتُهُمْ إنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَيَّهُمْ أَفْضَلُ . هُمْ كالْحَلَقَةِ الْمُفْرَغَةِ لا يُدْرى أَيْنَ طَرَفاها . »

وصارَ مَثَلاً يُضْرَبُ إذا ما صَعُبَ عَلى الْمَرْءِ اخْتِيارُ واحِدٍ مِنْ عِدَّةِ أَشْياءَ مُتَماثِلَةٍ .

خَلا لَكِ الجَوُّ فَبيضي واصْفِري

يُحْكى أَنَّ الشّاعِرَ « طَرَفَةَ بْنَ العَبْدِ » كانَ يَهْوى الوَحْدَةَ ، يَسْتَلْهِمُ شِعْرَهُ مِنَ الصَّحْراءِ الواسِعَةِ والفَضاءِ ، وكانَ يُحِبُّ قَضاءَ بَعْضِ الأَيّامِ في الصَّيْدِ ، فَهُوَ يُعَلِّمُهُ الصَّبْرَ ، ويَمْنَحُهُ الفُرْصَةَ لِكَي يَجْلِسَ وَحيدًا يَقْدَحُ زِنادَ فِكْرِهِ في قَصيدَةٍ مِنَ الشِّعْرِ ، فَلَمْ يَعُدْ لَهُ في الحَياةِ سِوى التَّرْحالِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ كُلَّ ثَرْوَتِهِ ، فَعاشَ هائِمًا في كُلِّ وادٍ زَمَنًا .

خَرَجَ « طَرَفَةُ بْنُ العَبْدِ » يَوْمًا لِلصَّيْدِ ، فَتَوَغَّلَ في الصَّحْراءِ حَتّى رَأى عَيْنَ ماءٍ صَغيرَةٍ ، قَدْ نَمَتْ حَوْلَها الأَعْشابُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ مَكانٌ مُناسِبٌ لِوُجودِ طَيْرِ القُنْبُرِ ، يُمَنّي نَفْسَهُ بِصَيْدٍ وافِرٍ مِنْ ذَلِكَ الدَّجاجِ البَرِّيِّ . لَوى عِنانَ جَوادِهِ ، ونَزَلَ عَنْهُ ، وأَمَرَ جَوادَهُ بِأَنْ يَسْكُنَ .

مَشى « طَرَفَةُ بْنُ العَبْدِ » بِحَذَرٍ مُتَسَلِّلاً حَتّى اقْتَرَبَ مِنَ العُشْبِ ، فَنَثَرَ حَبّا ، ثُمَّ وَضَعَ الأَفْخاخَ قُبالَتَها وغَطّاها بالعُشْبِ ، ثُمَّ نَثَرَ بَعْضَ الحُبوبِ فَوْقَها بِحِرْصٍ شَديدٍ ، ثُمَّ عادَ فَسَحَبَ حِصانَهُ واخْتَفى وَراءَ كَثيبٍ مِنَ الرِّمالِ ، يَنْظُرُ تُجاهَ العُشْبِ ، يَرى القَنابِرَ تَطيرُ فَتَنْزِلُ إلى العُشْبِ ، لا تَلْتَقِطُ الحَبَّ ثُمَّ تَطيرُ وتَخْتَفي .

يَقولُ طَرَفَةُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ : « لا بَأْسَ . سَوْفَ تَعودُ بَعْدَ قَليلٍ لِتَلْقُطَ الحَبَّ . »

ويَنْتَظِرُ طَرَفَةُ إلى حينٍ ، يُفَكِّرُ في بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَلا تَجودُ قَريحَتُهُ بِشَيْءٍ ؛ فَعَقْلُهُ مَشْغولٌ بالصَّيْدِ ، يُفَكِّرُ في القَنابِرِ ، يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْمَعَ صَرْخَةً ، ولَوْ واحِدَةً فَقَطْ ، تُنْبِئُهُ بِأَنَّ قُنْبُرَةً وَقَعَتْ في الفَخِّ .

جاءَ فَوْجٌ آخَرُ مِنَ القَنابِرِ ، فَحَطَّ عَلى العُشْبِ ، لَكِنَّهُ عادَ فَطارَ واخْتَفى ، ويَتَعَجَّبُ طَرَفَةُ مِنْ أَمْرِها ، فَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ ، يَقولُ : « هَلْ تَعْرِفُ القَنابِرُ شَكْلَ الفِخاخِ ؟ »

ويُراجِعُ عَقْلَهُ ، هَلْ نَثَرَ ما يَكْفي مِنَ الحَبِّ ؟ هَلْ أَهْمَلَ في إخْفاءِ الفِخاخِ ؟ وظَلَّ طَوالَ يَوْمِهِ عَلى نَفْسِ الحالِ ، يَجيءُ الطَّيْرُ فَيَحُطُّ عَلى العُشْبِ لِلَحْظَةٍ ، ثُمَّ يَطيرُ ويَبْتَعِدُ مُسْرِعًا .

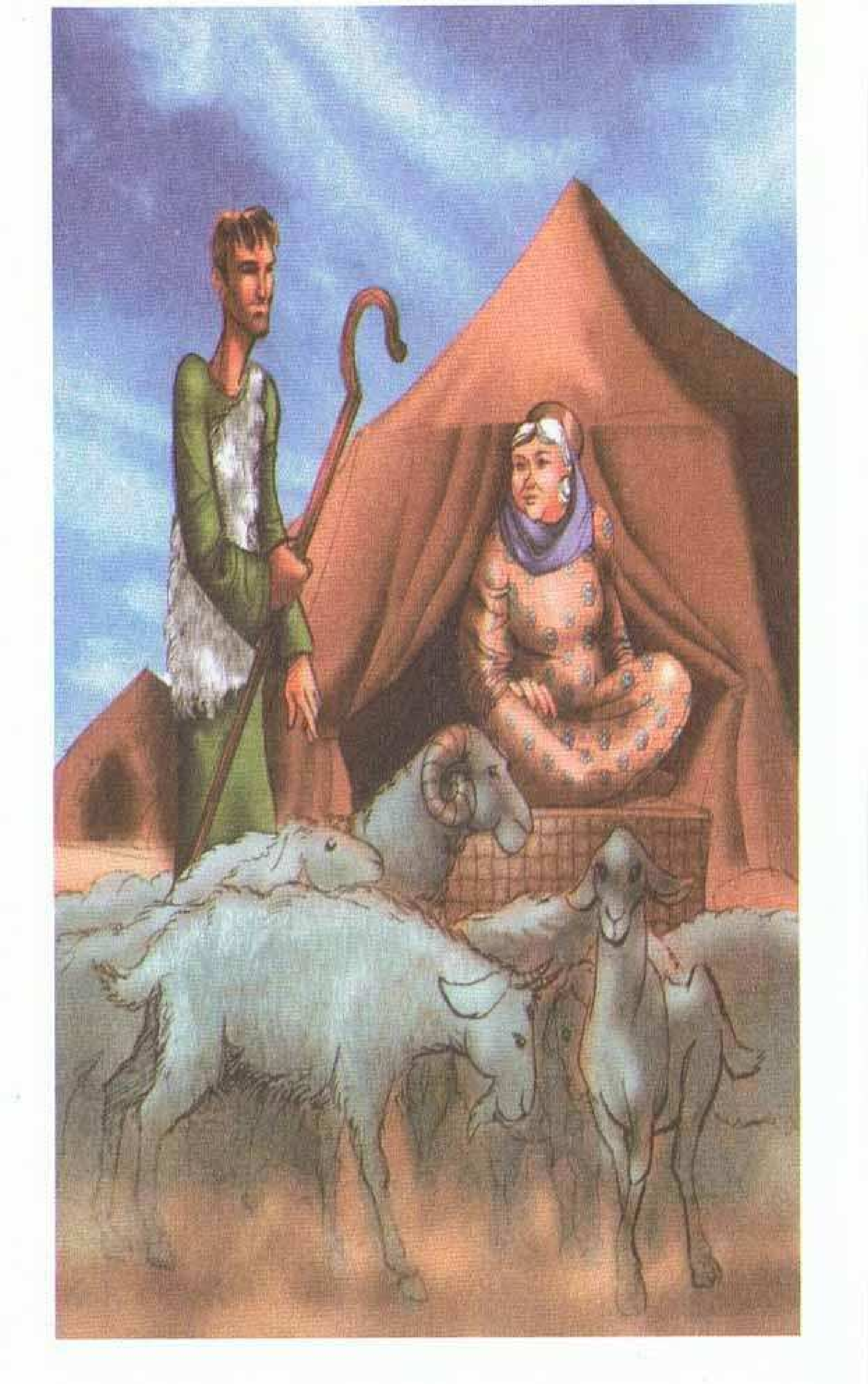
بَدَأَتِ الشَّمْسُ تَسْحَبُ أَشِعَّتَها عَنِ الكَوْنِ ؛ لِتَذْهَبَ إلى ناحِيَةٍ أُخْرى مِنَ الدُّنْيا ، فَقامَ طَرَفَةُ مِنْ رَقْدَتِهِ وَراءَ الكَثيبِ يَقولُ لِنَفْسِهِ :

« لا أَمَلَ اليَوْمَ في صَيْدٍ ، ولا في بَيْتِ شِعْرٍ . »

ودَخَلَ إلى العُشْبِ فَجَمَعَ الأَفْخاخَ ، وعادَ إلى حِصانه يَمْتَطيهِ اسْتِعْدادًا لِلرَّحيلِ ، فَرَأى أَفْواجًا مِنَ القَنابِرِ تَحُطُّ عَلى العُشْبِ ، تَلْتَقِطُ الحَبَّ الَّذي نَثَرَهُ طَرَفَةُ ، وتُصَفِّرُ أَلْحانًا تَنُمُّ عَنْ سَعادَتِها ، فابْتَسَمَ طَرَفَةُ وأَنْشَدَ يَقولُ :

يا لَكِ مِنْ قُنْبُرَةٍ بِمَعْـمَرِ   خَلا لَكِ الجَوُّ فَبيضي واصْفِري

وصارَ مَثَلاً يُضْرَبُ لِمَنْ وَجَدَ أَمْنًا في مَكانٍ يَسْتَطيعُ أَنْ يَشْعُرَ فيهِ بِحُرِّيَّتِهِ وسَعادَتِهِ .



رُبَّ شانِئَةٍ أحفى مِنْ أُمّ

كانَ شابٌّ أَعْرابيٌّ يَسْعَى لِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْم ، يَخْرُجُ في الصَّباحِ يَسوقُ أَغْنامَهُ أَمامَهُ ، ويَمُرُّ بِامْرَأَةٍ في الطَّريقِ ، فَتَقولُ لَهُ :

« أَ لا تُلْقِ بِتَحِيَّةِ الصَّباحِ ، يا هَذا ، عَلى مَنْ تَمُرُّ ؟ »

فَكانَ الشّابُّ الأَعْرابيُّ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْها ، ويَمْضِي إِلى حالِ سَبيلِهِ ؛ فَهُوَ لَمْ يَتَعَوَّدْ في حَياتِهِ أَنْ يُلْقِيَ بِالتَّحِيَّةِ عَلى أَحَد . نَشَأَ في دارِ أَبيهِ ، يَسْعى لِحالِهِ دونَ الالْتِفاتِ لأَحَدٍ مِمَّنْ يُعاشِرُهُ ، يَرُدُّ عَلى سُؤالٍ لأُمِّهِ أَوْ أَبيهِ إِذا سَأَلاهُ شَيْئًا .

لَمْ تَمَلِّ الْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ تَقولَ لَهُ كُلَّ صَباحٍ عِنْدَما يَمُرُّ

أَمامَها مِثْلَ قَوْلِها ، تُوَبِّخُهُ عَلى تَجاهُلِهِ لِنُصْحِها .
وأَصْبَحَ حَديثُ الْمَرْأَةِ يُضايِقُهُ ، يَجْعَلُهُ مَهْمومًا طَوالَ يَوْمِهِ وهُوَ يَرْعى الْغَنَمَ .

يَقولُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ : « ما لَها تِلْكَ الْمَرْأَةُ ومالي ؟ »

وذاتَ صَباحٍ مَرَّ الشّابُّ أَمامَ الْمَرْأَةِ فَقالَ لَها :

« نَعِمْتِ صَباحًا ، يا خالَةُ . »

فابْتَسَمَتِ الْمَرْأَةُ وقالَتْ لَهُ :

« نَعِمْتَ صَباحًا ، يا وَلَدي . جَعَلَ اللهُ يَوْمَكَ سَعيدًا مَبْروكًا . »

وذَهَبَ الشّابُّ إلى مَرْعاهُ ، و وَجْهُ الْمَرْأَةِ لا يَغيبُ عَنْهُ ، فَجَلَسَ يَرْقُبُ الأَغْنامَ وهِيَ تَرْعى ، وَحَدَّثَ نَفْسَهُ ، يَقولُ :

« ما خَسِرْتُ شَيْئًا . لَعَلَّ دَعْوَتَها تَتَحَقَّقُ . »

وثَغَتْ نَعْجَةٌ ثُغاءً مُتَواصِلاً ، فَوَضَعَتْ حَمَلاً (ذَكَرًا)

جَميلاً ، جَرى إِلَيْهِ الشّابُّ فَرِحًا مُسْتَبْشِرًا ، وثَغَتْ أُخْرى فَجاءَتْ بِحَمَلٍ (أُنْثى) ، وثالِثَةٌ جاءَتْ بِأُنْثى بَيْضاءَ .
زادَتْ أَغْنامُهُ ثَلاثَةً في صَباحٍ واحِدٍ .

أَصْبَحَ مِنْ عادَةِ الشّابِّ الأَعْرابِيِّ أَنْ يُزْجِيَ الْمَرْأَةَ تَحِيَّتَهُ كُلَّ صَباحٍ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ و وَجْهٍ باسِمٍ ، يَتَلَقّى مِنْها التَّحِيَّةَ والدُّعاءَ ، فَيَزْدادُ وَجْهُهُ تَأَلُّقًا وسَعادَةً .

قالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ يَوْمًا :

« يا بُنَيَّ ، لَقَدِ ازْدادَتْ غَنَمُكَ بِفَضْلِ اللهِ . أَلا تَشْتَري لَكَ خُفًّا تَلْبَسُهُ في قَدَمَيْكَ اللَّتَيْنِ تَشَقَّقَتا مِنَ الحَفاءِ ؟ »

فَقالَ لَها الشّابُّ الأَعْرابِيُّ :

« سَمْعًا وطاعَةً ، يا خالَةُ . »

ومَشى إلى الْمَرْعى فَجَلَسَ يُفَكِّرُ في كَلامِ الْمَرْأَةِ ، فاقْتَنَعَ بَعْدَ أَنْ نَظَرَ إلى قَدَمَيْهِ ، ورَأَى مَنْظَرَهُما الْبَشِعَ ، فَقالَ لِنَفْسِهِ : « ولِماذا لَمْ أُفَكِّرْ في ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ؟ »



عادَ الشّابُّ الأَعْرابيُّ إلى دارِهِ ، فَأَدْخَلَ الغَنَمَ ، ثُمَّ أَسْرَعَ إلى السّوق فاشْتَرى خُفّا ، وحَمَلَهُ في يَدِهِ وجَرى بِهِ إلى الدّار ، فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ : جاءَ بِحَجَرٍ وظَلَّ يَحُكُّ بِهِ عَقِبَيْهِ ، ثُمَّ غَسَلَهُما بالْماءِ ، وانْتَعَلَ الخُفَّ ، فَشَعَرَ كَأَنَّهُ أَصْبَحَ إِنْسانًا آخَرَ .

سَأَلَتْهُ أُمُّهُ : « لماذا اشْتَرَيْتَ الخُفَّ ؟ ماذا تَظُنُّ نَفْسَكَ ؟ »

ولَمْ يَرُدَّ الشّابُّ ، بَلْ راحَ في نَوْمٍ عَميقٍ ، وأَطْيافٌ مِنَ النَّعيمِ تُرَفْرِفُ حَوْلَهُ أَحْلامًا وَرْدِيَّةً .

سارَ الشّابُّ صَباحًا يَتيهُ فَخْرًا بِخُفِّهِ ، فَرَأى ابْتِسامَةَ الْمَرْأَةِ مِنْ بَعيدٍ ، فَأَخَذَ يُشيرُ إلى خُفِّهِ ، فَأَبْدَتِ العَجوزُ إِعْجابَها بِهِ ، فَوَقَفَ أَمامَها يَقولُ : « لَقَدْ أَطَعْتُ قَوْلَكِ ، واشْتَرَيْتُ الخُفَّ بالأَمْسِ . »

قالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ : « إِنَّهُ خُفٌّ يَليقُ بِكَ ، لَكِنَّ حُسْنَ مَنْظَرِهِ لَنْ يَتَّضِحَ إِذا لَمْ تُغَيِّرْ مِنْ ثَوْبِكَ الَّذي لا تُبَدِّلُهُ ، يا بُنَيَّ . لِماذا لا تَشْتَري ثَوْبًا آخَرَ فَتَرْتَدِيَهُ ثُمَّ تَغْسِلُ هَذا

الثَّوْبَ ؟»

فَهَزَّ الشَّابُّ رَأْسَهُ وقالَ لِلمَرْأَةِ : «سَمْعًا وطاعَةً ، يا خالَةُ .»

واشْتَرى الثَّوْبَ الجَديدَ ، ولَمْ يَلْتَفِتْ إلى صَيْحاتِ الاسْتِنْكارِ الَّتي سَمِعَها مِنْ أُمِّهِ .

رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ صَباحًا في ثَوْبٍ جَديدٍ ، يَمْشي في سَعادَةٍ فَأَلْقى عَلَيْها تَحِيَّةَ الصَّباحِ ، فَقالَتْ لَهُ : «هَلْ تُلْقي بالتَّحِيَّةِ عَلى مَنْ تُقابِلُهُ ؟ لا تَكْذِبْ .»

فَرَدَّ الأَعْرابِيُّ بالإيجابِ ، يَقولُ لَها : «لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْكِ الكَثيرَ ، يا خالَةُ .»

فَقالَتْ لَهُ : «لَيْتَكَ ، يا بُنَيَّ ، تَغْتَسِلُ ثُمَّ تُقَصِّرُ شَعْرَكَ وأَظافِرَكَ . فالنَّظافَةُ مِنَ الإيمانِ .» و وَعَدَها أَنْ يَفْعَلَ .

عادَ الشَّابُّ إلى دارِهِ وقَدْ قَصَّرَ شَعْرَهُ ، يَسْتَعِدُّ لِلاغْتِسالِ، فَقامَتْ أُمُّهُ تُعَنِّفُهُ عَلى تَصَرُّفاتِهِ الجَديدَةِ ،

فَقالَ لَها :

«و اللهِ ، لَقَدْ ظَلَّتِ امْرَأَةٌ لا أَعْرِفُها تُظْهِرُ لي عُيوبي حَتّى أَصْلَحْتُها . وأَنْتِ ، يا أُمّاهُ ، أَقَلُّ عِنايَةٍ بِوَلَدِكِ . رُبَّ شانِئَةٍ أَحْفَى مِنْ أُمٍّ .»

فَصارَ مَثَلاً يُضْرَبُ إذا ما أَصْلَحَ الْمَرْءُ عُيوبَهُ الَّتي أَظْهَرَها لَهُ مَن انْتَقَدَهُ بِقَصْدِ الإصْلاحِ . فالْمَقْصودُ بالشّانِئَةِ الكارِهَةُ الْمُبْغِضَةُ لِلعيوبِ ، وبالأَحْفى الأَحَنُّ الأَكْرَمُ .

عَلى قَوْمِها جَنَتْ بَراقِشُ

سارَتِ القافِلَةُ في الصَّحْراءِ ، تَبْحَثُ عَنْ بِئْرِ ماءٍ جَديدٍ بَعْدَ أَنْ نَضَبَ ماءُ البِئْرِ التي يَعيشونَ عَلى مائِها . ولَمَحَ شَيْخُ القَوْمِ وهُوَ فَوْقَ ناقَتِهِ طُيورًا تَحومُ حَوْلَ بُقْعَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ مِنْهُمْ ، فَنادى ابْنَهُ ، وَقالَ لَهُ :

« اِذْهَبْ ، يا وَلَدي ، وانْظُرْ ناحِيَةَ الطَّيْرِ . هَلْ هُناكَ ماءٌ ؟ »

جَرى الابْنُ ، يَحُثُّ حِصانَهُ على العَدْوِ تُجاهَ الطَّيْرِ ، فَوَجَدَ عَيْنَ ماءٍ يَفيضُ الْماءُ عَلى جانِبَيْها ، فَصَرَخَ فَرِحًا ، وعادَ مُسْرِعًا إلى قَوْمِهِ يُبَشِّرُهُمْ بِوجودِ الْماءِ ، ويَقولُ لأَبيهِ :

« يا أَبَتاهُ ، الْماءُ يَفيضُ مِنَ العَيْنِ ، والأَرْضُ واسِعَةٌ ومُمْتَدَّةٌ . »

حَثَّ شَيْخُ القَوْمِ سَيْرَ القافِلَةِ حَتّى وَصَلَتِ الماءَ ، فَشَرِبَ القَوْمُ ، ثُمَّ شَرِبَتِ الأَنْعامُ ، ونَبَحَتْ كَلْبَةُ القَوْمِ « بَراقِش » فَرَحًا . نَصَبَ القَوْمُ خِيامَهُمْ ، وبَدَأَ العَمَلُ في إحاطَةِ عَيْنِ الماءِ بالحِجارَةِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وحَفَروا قَناةً كَي تَشْرَبَ مِنْها الإِبِلُ والماعِزُ والضَّأْنُ .

جَلَسَ الشَّيْخُ في خَيْمَتِهِ ، ورَقَدَتْ كَلْبَتُهُ « بَراقِش » إلى جِوارِهِ تَحْرُسُهُ وتَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ كُلَّ حينٍ فَتَرى السُّرورَ عَلى وَجْهِهِ ، فَتَهُزُّ لَهُ ذَيْلَها ، وكَأَنَّما تُريهِ مَدى سَعادَتِها ، فَمَسَحَ الشَّيْخُ بِيَدِهِ عَلى رَأْسِها ، ونادى جارِيَتَهُ لِتَأْتِيَ بالطَّعامِ لِكَلْبَتِهِ « بَراقِش » .

كانَتْ كَلْبَةُ الشَّيْخِ تُحِبُّهُ حُبًّا جَمًّا ، طائِعَةً لَهُ ، تَفْهَمُ مِنْ عَيْنَيْهِ كُلَّ ما يُريدُهُ مِنْها ، فَكانَتْ تَحْرُسُ الغَنَمَ عِنْدَ

رَعْيِها فلا يَسْتَطيعُ كَبْشٌ أَوْ تَيْسٌ أَنْ يَجْرِيَ أَوْ أَنْ يَفِرَّ . فَبَراقِشُ دائِمًا مُسْتَعِدَّةٌ لِلعَدْوِ خَلْفَ النّافِرِ مِنْها ؛ لِتُعيدَهُ إِلى القَطيعِ ، وهِيَ في غَيْرِ أَوْقاتِ الرَّعْيِ جاثِمَةٌ تَحْتَ قَدَمَيِ الشَّيْخِ ، أَوْ ماشِيَةٌ إِلى جِوارِهِ تَحْرُسُهُ ، لا تَسْمَحُ لأَحَدٍ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ سَيِّدِها إِلا إِذا نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَيْها نَظْرَةً ذاتَ مَعْنًى تَفْهَمُهُ بَراقِش بِأَنْ لا تَتَدَخَّلَ .

عاشَتِ القَبيلَةُ حَوْلَ عَيْنِ الماءِ ، تَشْكُرُ خالِقَها عَلى عَطِيَّتِهِ . وأَفاضَتِ العَيْنُ ماءً كَثيرًا ، زَرَعَ القَوْمُ حَوْلَها وَرَوَوُا الزَّرْعَ فاخْضَرَّتِ الأَرْضُ تَمْنَحُ العُيونَ راحَةً والبُطونَ طَعامًا . أَكَلَتِ الأَنْعامُ والغَنَمُ وشَرِبَتْ فَتَكاثَرَتْ وجادَتْ باللَّحْمِ واللَّبَنِ .

نادى شَيْخُ القَوْمِ أَوْلادَهُ وأَحْفادَهُ وقالَ لَهُمْ :

« لَقَدْ أَفاضَ اللهُ عَلَيْنا بالخَيْرِ . وأَخْشَى أَنْ يُهاجِمَنا قُطّاعُ الطَّريقِ ، أَوْ يَكِرَّ عَلَيْنا قَوْمٌ آخَرونَ طَمَعًا في أَرْضِنا

وأَمْوالِنا . »

فَسَأَلَهُ الرِّجالُ عَمّا يُريدُ ، فَقالَ لَهُمْ :

« عَلَيْنا أَنْ نَسْتَعِدَّ دائِمًا لِمُقاوَمَةِ الغاراتِ ، وأَنْ تَكونَ رِحالُنا جاهِزَةً حَتّى إِذا ما اضْطُرِرْنا لِلفِرارِ لا نَضْطَرِبُ . »

بَدَأَ الْقَوْمُ يُعِدّونَ أَنْفُسَهُمْ لِلقِتالِ ، فَتَدَرَّبوا عَلى الْمُبارَزَةِ ورَمْيِ النِّبالِ وطَعْنِ الرِّماحِ ، وكانَتْ نِساءُ القَبيلَةِ يَعْمَلْنَ في تَخْزينِ الطَّعامِ والماءِ كَما أَشارَ بِهِ كَبيرُ القَوْمِ ؛ فَكَلِمَتُهُ نافِذَةٌ ، وطَلَباتُهُ أَوامِرُ لا تُرَدُّ ، فَهُمْ قَدْ تَعَوَّدوا دائِمًا عَلى حِكْمَتِهِ .

صَحا الْقَوْمُ يَوْمًا وَسْطَ اللَّيْلِ عَلى نُباحِ « بَراقِش » الْمُسْتَمِرِّ ، فَهَبَّ عَدَدٌ مِنَ الرِّجالِ ، فَأَخَذوا سِلاحَهُمْ وقَفَزوا فَوْقَ خُيولِهِمْ ، وأَشارَ الشَّيْخُ إِلى « براقِش » ، فَجَرَتْ أَمامَ الخَيْلِ ، تُرِي الفُرْسانَ ما فَطِنَتْ إِلَيْهِ الكَلْبَةُ عِنْدَما اشْتَمَّتْ رائِحَةَ غُرَباءَ عَنِ القَوْمِ .

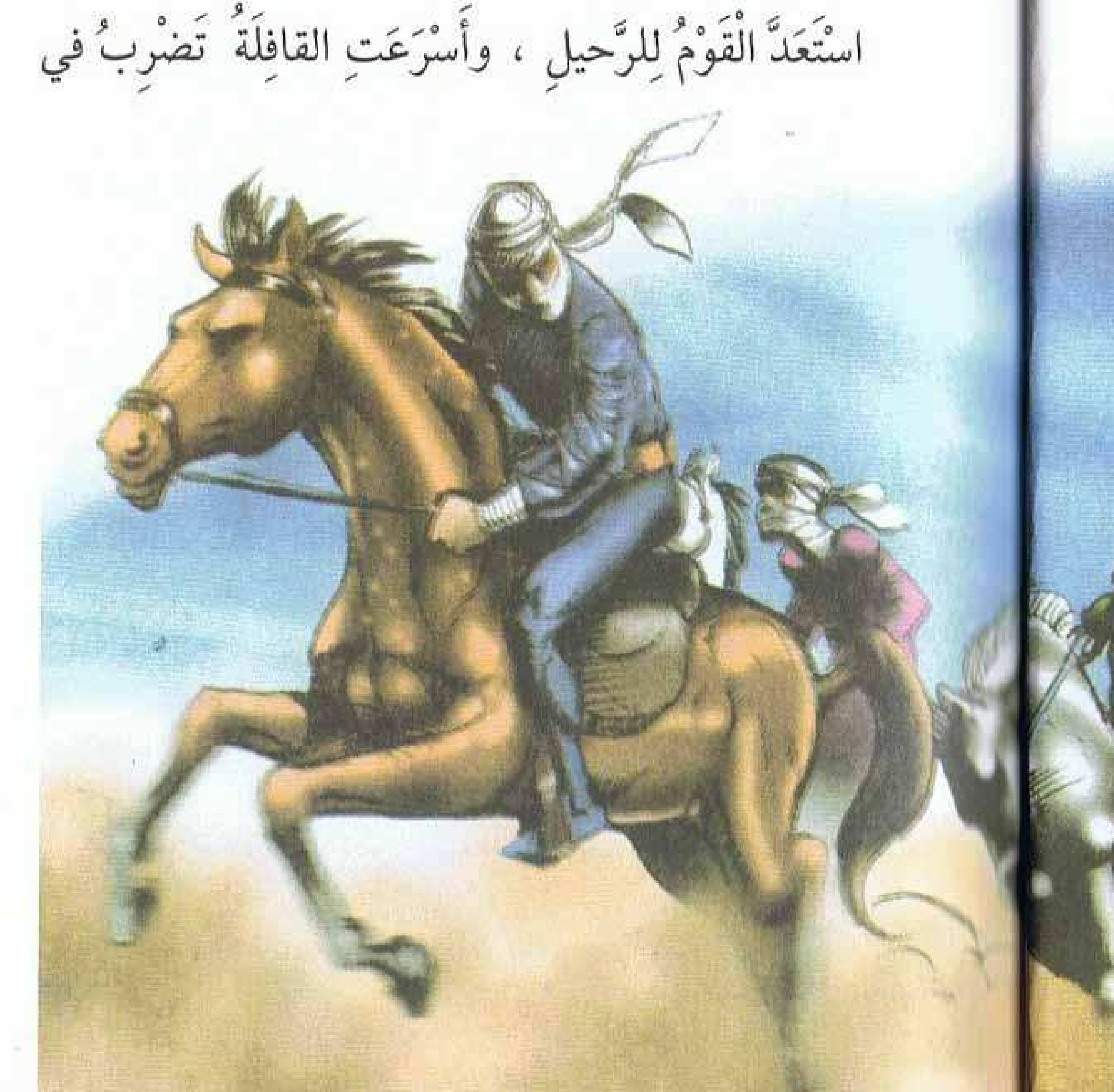
رَأى الرِّجالُ أَرْبَعَةً مِنَ الفُرْسانِ الْمُلَثَّمينَ ، يَفِرّونَ عَدْوًا بِخَيْلِهِمْ و « بَراقِش » تَتْبَعُ آثارَهُمْ ، فَرَأى قائِدُ رِجالِ القَبيلَةِ أنْ لا جَدْوى مِنْ مُطارَدَةِ الْمُتَلَصِّصينَ ، فَنادى « براقش » وعادوا إلى قَوْمِهِمْ ، يَقُصّونَ ما حَدَثَ عَلى شَيْخِهِمْ ، ثُمَّ يَسْأَلونَهُ الرَّأْيَ ، فَقالَ لَهُمْ : « أَظُنُّهُمْ عُيونَ قَوْمٍ يَسْتَعِدّونَ لِغَزْوِنا . »

سَأَلَهُمُ الشَّيْخُ عَنْ عَدَدِ الْمُلَثَّمينَ ، فَقالوا لَهُ : « كانوا أَرْبَعَةَ فُرْسانٍ ، مِثْلَنا عَدَدًا . »

قالَ الشَّيْخُ : « إذا أَرْسَلَ الْقَوْمُ أَرْبَعَةَ جَواسيسَ فَمَعْنى ذَلِكَ أَنَّ عَدَدَهُمْ كَبيرٌ . لَوْ كانوا قِلَّةً لأَرْسَلوا واحِدًا فَقَطْ . »

وفَكَّرَ الشَّيْخُ قَليلاً ثُمَّ قالَ : « هَيّا بِنا . لا بُدَّ أَنْ نَرْحَلَ الآنَ ، لأَنَّهُمْ بِالقَطْعِ سَوْفَ يُهاجِمونَنا فَجْرًا . »

اسْتَعَدَّ الْقَوْمُ لِلرَّحيلِ ، وأَسْرَعَتِ القافِلَةُ تَضْرِبُ في



الصَّحْراءِ ، يَقودُها شَيْخُها الْمُحَنَّكُ ، يَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ أَمينٍ يَسْتَطيعُ أَنْ يَحُطَّ الْقَوْمُ فيهِ رِحالَهُمْ . تَوَقَّفَ الشَّيْخُ عَنِ الْمَسيرِ ، وأَناخَ ناقَتَهُ ، وقالَ لأَرْبَعَةٍ مِنْ رِجالِهِ :

« لِيَذْهَبْ كُلٌّ مِنْكُمْ في اتِّجاهٍ . اِبْحَثوا عَنْ مَكانٍ آمِنٍ مُحاطٍ بالتِّلالِ لا تَراهُ العُيونُ حَتّى نُخَيِّمَ هُناكَ . »

انْطَلَقَ الفُرْسانُ الأَرْبَعَةُ ، في حينِ أَناخَتِ العيرُ تَنْتَظِرُ . جاءَ أَحَدُهُمْ بالبُشْرَى ؛ فَقَدْ عَثَرَ عَلى الْمَكانِ الَّذي يَنْشُدُ الشَّيْخُ وُجودَهُ ، فَسَأَلَهُ :

« قُلْ لي ، يا أَبَتاهُ ، ما هِيَ الحِكْمَةُ مِنِ اخْتِيارِ مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكانِ ؟ »

فَقالَ الشَّيْخُ : « نُقيمُ فيهِ بِضْعَةَ أَيّام ، حَتّى يَسْتَقِرَّ الْمُغيرونَ مَكانَنا ، فَنَكُرَّ عَلَيْهِمْ لَيْلاً ، نَسْتَرِدَّ أَرْضَنا ونَغْنَمَ أَسْلِحَتَهُمْ . »

هَزَّ رِجالُ القَبيلَةِ رُؤوسَهُمْ يَسْتَحْسِنونَ فِكْرَ شَيْخِهِمْ ، ويَتَفَكَّرونَ في حِكْمَتِهِ .

وَصَلَ القَوْمُ إلى الْمَكانِ الآمِنِ ، فَأَناخوا الجِمالَ ، وجَمَعوا الغَنَمَ ، ونَصَبوا الخِيامَ ، ومَنَعَ الشَّيْخُ قَوْمَهُ مِنْ إِشْعالِ النِّيرانِ لِلطَّهْيِ أَوِ الاصْطِلاءِ حَتّى لا يَرى أَعْداؤُهُمُ الضَّوْءَ . وطَلَبَ الشَّيْخُ مِنِ ابْنِهِ أَنْ يُقيمَ الحِراسَةَ لَيْلاً ونَهارًا عَلى مَداخِلِ الوادي .

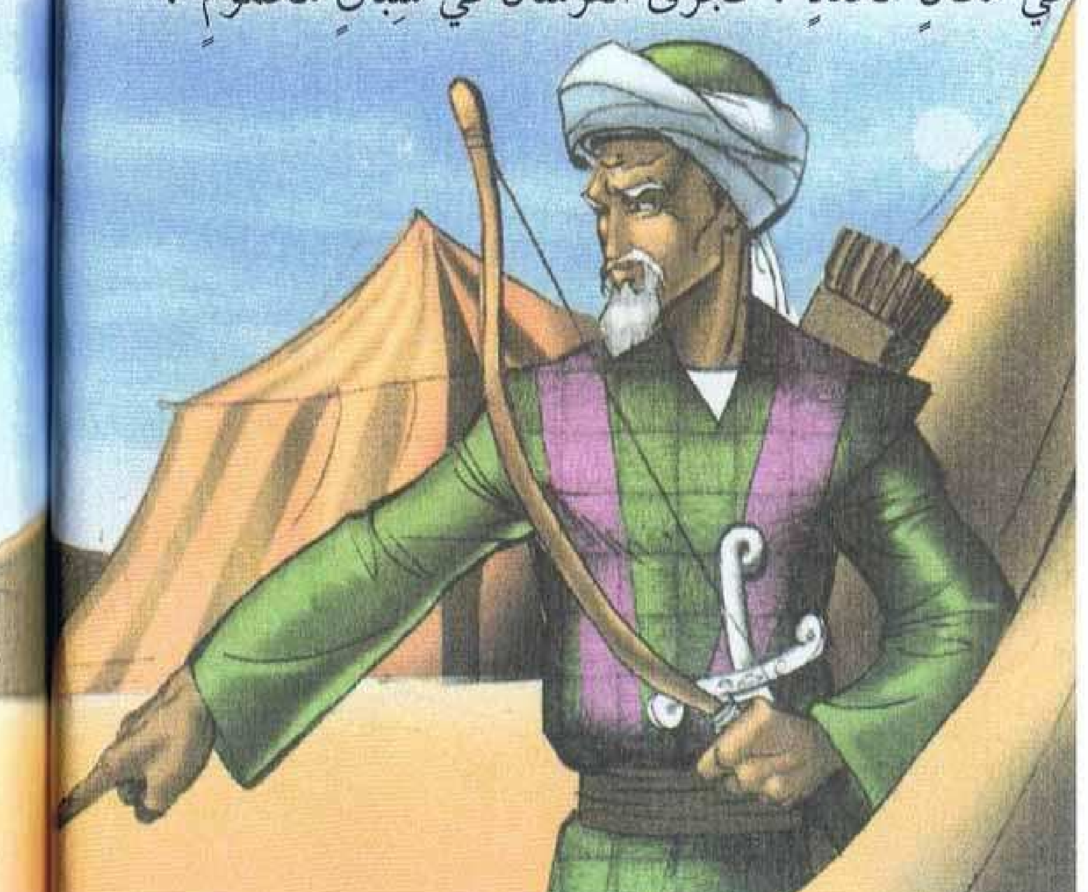
جاءَ الْمُغيرونَ ، فَوَجَدوا عَيْنَ الماءِ وقَدْ سَدَّها القَوْمُ ، ورَدَموها بالحِجارَةِ ، ولَمْ يَجِدوا أَحَدًا . عَقَدَ رَئيسُهُمْ مَجْلِسًا لِلرِّجالِ يَتَشاوَرونَ في الأَمْرِ . مَشى قَصّاصو الأَثَرِ ، يُحْصونَ مَكانَ حَوافِرِ الخَيْلِ وأَخْفافِ الجِمالِ ، يُقَدِّرونَ عَدَدَ القَوْمِ الهارِبينَ .

قالوا لِزَعيمِهِمْ : « لَيْسوا بالكَثيرِ . إِنَّنا نَفوقُهُمْ عَدَدًا ، ولَمْ يَبْتَعِدوا كَثيرًا عَنْ هُنا . عَلَيْنا أَنْ نَكُرَّ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ

يَسْتَريحوا . »

وأَمَرَ الزَّعيمُ رجالَهُ بالرُّكوبِ ، وأَرْسَلَ بَعْضَ الرِّجالِ مِنْ قَصّاصي الأَثَرِ لِلبَحْثِ عَنْ آثار القافِلَةِ ، فَعادَ القَصّاصونَ يَقولونَ إنَّ الرِّمالَ قَدْ أَخْفَتْ آثارَ القافِلَةِ .

قَسَّمَ كَبيرُ الْمُغيرينَ رجالَهُ إلى أَرْبَعَةِ أَقْسام ، بَعَثَ بِكُلِّ قِسْمٍ إلى ناحِيَةٍ ، وتَواعَدوا عَلى اللِّقاءِ بَعْدَ ساعَتَيْنِ في مَكانٍ مُحَدَّدٍ ، فَجَرى الفُرْسانُ في سِباقٍ مَحْمومٍ ،



يَوَدُّ كُلُّ فَريقٍ أَنْ يَعْثُرَ عَلى القَوْمِ الهاربينَ ، فَالغَنائِمُ تُغْري الغُزاةَ . مَضَتِ السّاعَتانِ ولَمْ يَعْثُرِ الفُرْسانُ عَلى أيِّ أَثَرٍ ، فالْتَقى الجَميعُ في الْمَكانِ الَّذي حَدَّدوهُ يَنْتَظِرونَ أَمْرَ كَبيرِهِمْ .

كانَ الغُبارُ الَّذي يُثيرُهُ خَيْلُ الْمُغيرينَ كَفيلاً بِأَنْ يَراهُ عَلى البُعْدِ حُرّاسُ القَبيلَةِ الْمُخْتَفِيَةِ ، فَجَرى أَحَدُهُمْ يُخْبِرُ الشَّيْخَ بِالأَمْرِ فَأَصْدَرَ أَمْرَهُ بالاسْتِعْدادِ للقِتالِ والانْتِظار . وشَمَّتْ « براقش » رائِحَةَ الغُزاةِ عَلى البُعْدِ ، فَجَرَتْ تَنْبَحُ نُباحًا مُتَّصِلاً لِتُنَبِّهَ قَوْمَها بِأَنَّ غُرَباءَ عَنْهُمْ يَقْتَرِبونَ مِنْهُمْ ، فَصَرَخَ فيها سَيِّدُها أَنْ تَسْكُتَ ، فَمَشَتْ إِلَيْهِ تَهُزُّ ذَيْلَها فَأَشارَ إِلَيْها أَنْ تَجْلِسَ صامِتَةً فَأَطاعَتْ .

سَمِعَ الغُزاةُ عَلى البُعْدِ صَوْتَ نُباحِ « براقش » ، فَتَنَبَّهوا ، فكَرّوا بِشِدَّةٍ عَلى القَوْمِ وفاجَؤهُمْ مِنْ فَوْقِ التِّلالِ فَقَتَلوا الرِّجالَ ، ونَظَرَ الشَّيْخُ إِلى كَلْبَتِهِ وقالَ :

« عَلى قَوْمِها جَنَتْ بَراقِش . »

ولَحِقَهُ سَهْمٌ في صَدْرِهِ فَسَقَطَ الشَّيْخُ مُضَرَّجًا في دَمِهِ ، وجَرَتْ « براقش » ناحِيَةَ مَنْ رَمى سَيِّدَها بالسَّهْمِ ، فَعاجَلَها بِنَبْلٍ فَأَرْداها مَكانَها تَعْوي مِنَ الأَلَمِ قَبْلَ أَنْ تَموتَ .

وصارَ مَثَلاً يُقالُ عَلى كُلِّ مَنْ تَسَبَّبَ في أَذى نَفْسِهِ أَوْ قَوْمِهِ .

في الصَّيْفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ

كانَ « عَمْرُو بْنُ عُدَس » شَيْخًا ثَرِيًّا كَثيرَ الضِّياعِ والأَنْعامِ ، يَحْيا في رَغَدٍ مِنَ العَيْشِ . أَرادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ فَتاةً جَميلَةً . وبَلَغَ القَوْمَ أَنَّ « عَمْرَو بْنَ عُدَس » يُريدُ الزَّواجَ ، فَبَدَأَتِ النِّساءُ تُعِدُّ بَناتِهِنَّ بِأَحْسَنِ الثِّيابِ وأَجْمَلِ العُطورِ ، وتُحَلّي صُدورَهُنَّ بالذَّهَبِ ، فَقَدْ يُسْعِدُ الحَظُّ إِحْداهُنَّ بِزَواجِ ابْنَتِها بالثَّرِيِّ « ابْنِ عُدَس » .

بَدَأَ الرِّجالُ مِنْ خاصَّةِ « ابْنِ عُدَس » ، يَعْرِضونَ عَلَيْهِ أَسْماءَ البَناتِ اللاتي يُرَشِّحونَهُنَّ لِلزَّواجِ بِهِ ، ويَذْكُرونَ نَسَبَ كُلٍّ مِنْهُنَّ وحَسَبَها ، فَكانَ الشَّيْخُ يَضْحَكُ ويَسْأَلُهُمْ أَنْ يَصِفوا لَهُ جَمالَها ، فَهُوَ لا يَهْتَمُّ بالحَسَبِ ولا بالأَصْلِ قَدْرَ اهْتِمامِهِ بالجَمالِ .

جاءَهُ صاحِبٌ لَهُ يَقولُ :

« عَرَفْتُ ضالَّتَكَ ، يا عَمْرُو ، أَنْتَ تَبْحَثُ عَنْ رائِعَةِ الحُسْنِ ، وأنا أعْرِفُ أيْنَ هِيَ . »

فَسَأَلَهُ « ابْنُ عُدَس » عَنْها فقالَ لَهُ صاحِبُهُ :

« اِسْمُها ‹‹ دَخْتَنُوس بِنْتُ لُقَيْط ››. طَويلَةٌ كَنَخْلَةٍ مُزْهِرَةٍ ، بَشَرَتُها بِلَوْنِ جُمّارِ نَخْلَةٍ طارِحَةٍ ، طَويلَةُ السّاقَيْنِ ، رَقَبَتُها مُرْتَفِعَةٌ ، يَتوهُ المَرْءُ في عَيْنَيْها الواسِعَتَيْنِ ، وصَوْتُها كَأَنَّهُ لَحْنٌ شَجِيٌّ تَسْمَعُهُ فلا تَمَلُّهُ . لا هِيَ مُمْتَلِئَةٌ مُتَرَهِّلَةٌ ولا هِيَ بِالعَجْفاءِ الواهِنَةِ ، بَلْ بَيْنَ هَذِهِ وتِلْكَ ، حَمولٌ تَعْمَلُ بِلا كَلَلٍ . »

قالَ لَهُ « ابْنُ عُدَس » : « أَتَعْرِفُ مَكانَ قَوْمِها ؟ »

فَأَجابَهُ الصَّديقُ بِأَنَّهُ يَعْرِفُهُ ، فَقامَ « ابْنُ عُدَس » وأَخَذَ المالَ والجَواهِرَ مَعَهُ ، وحَمَّلَ ناقَةً بالحَريرِ والتَّوابِلِ ، وخَرَجَ في مَوكِبِهِ قاصِداً دِيارَ « ابْنِ لُقَيْط » .

دَخَلَ مَوْكِبُ « عَمْرِو بْنِ عُدَس » إلى دِيارِ « ابْنِ لُقَيْط » ، فَتَوَقَّفَ أَمامَ البَيْتِ يَطْلُبُ الإِذْنَ بالدُّخولِ ، فَدَعاهُ صاحِبُ الدّارِ ، فَنَزَلَ وأَمَرَ رِجالَهُ بِحَمْلِ الهَدايا إلى داخِلِ الدّارِ ، فَسَأَلَهُ « ابْنُ لُقَيْط » : « ما هَذا ، يا أَخَ العَرَبِ ؟ »

فَقالَ « عَمْرُو بْنُ عُدَس » : « جِئْتُ أَطْلُبُ يَدَ ابْنَتِكَ ‹‹ دَخْتَنُوس ›› لِما سَمِعْتُهُ عَنْها مِنْ كَمالِ الصِّفاتِ . أنا ‹‹ عَمْرُو بْنُ عُدَس ›› مِنْ أَغْنى أَغْنِياءِ العَرَبِ . »

رَحَّبَ الرَّجُلُ بِالخاطِبِ ، فَخَلَعَ عِمامَتَهُ وهَرَشَ في رَأْسِهِ يَقولُ :

« لَقَدْ فاجَأْتَني ، يا سَيِّدي الشَّيْخَ ، بِسُؤالِكَ . لَكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَرُدَّ لِسَيِّدٍ مِنْ أَسْيادِ العَرَبِ طَلَبًا . وافَقْتُ عَلى طَلَبِكَ ويُشَرِّفُني أَنْ أُصاهِرَكَ . »

أَخْرَجَ « عَمْرُو بْنُ عُدَس » عِدَّةَ أَكْياسٍ مِنَ الذَّهَبِ ، و وَضَعَها أَمامَ « ابْنِ لُقَيْط »وقالَ لَهُ :

« و هَذا هُوَ مَهْرُها : خَمْسُمائَةُ قِطْعَةٍ ذَهَبِيَّةٍ . »

ثُمَّ أَخْرَجَ الحُلِيَّ والجَواهِرَ وَقالَ :

« وهَذِهِ هَدِيَّةُ زَواجي مِن ابْنَتِكَ . »

واتَّفَقَ الرَّجُلانِ عَلى إتْمامِ الزَّواجِ بَعْدَ أُسْبوعٍ ، فَنادَى « ابْنُ لُقَيْط » ابْنَتَهُ « دَخْتَنُوس » ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِما ، فَفَغَرَ الشَّيْخُ فاهُ إِعْجابًا بِالحُسْنِ البادي عَلى الفَتاةِ . كانَ وَصْفُ صاحِبِهِ قاصِرًا عَمّا هِيَ فيهِ مِنْ حُسْنٍ وجَمالٍ .

انْصَرَفَ الشَّيْخُ « عَمْرُو بْنُ عُدَس » ، فَقالَتِ الفَتاةُ لأَبيها عِنْدَما أَصْبَحا وَحْدَهُما : « ما هَذا ، يا أَبَتاهُ ؟ إِنَّهُ يَكْبُرُكَ سِنًّا . »

فَقالَ الأَبُ : « يا بُنَيَّتي ، أَعْطَيْتُكِ المالَ والعِزَّ مَعَ الشَّيْخِ ، عَسى أَنْ نَنْعَمَ كُلُّنا بِالخَيْرِ ، كَفانا فَقْرًا وحِرْمانًا . »

وحاوَلَتْ « دَخْتَنوس » أَنْ تُكَلِّمَ أَباها دونَ فائِدَةٍ ، فَلَقَدْ أَعْطى الرَّجُلُ كَلِمَتَهُ لِـ « ابْنِ عُدَس » ، وأَخَذَ مَهْرَها ،

فَأَصْدَرَ أَوامِرَهُ بِإِعْدادِ الفَرَحِ بَعْدَ أُسْبوعٍ ، فَدَقَّتِ النِّساءُ الدُّفوفَ فَرَحًا وابْتِهاجًا بِزَواجِ رائِعَةِ الحُسْنِ والجَمالِ « دَخْتَنُوس » .

جَرَتِ الفَتاةُ إِلى خِدْرِها تَبْكي حَظَّها العاثِرَ ، فَقَلْبُها مَشْغولٌ بِحُبِّ فَتًى مِنْ قَوْمِها يَرْعى الغَنَمَ ، فَقيرٍ مِثْلِها ، فارِعِ الطّولِ ، مَفْتولِ العَضَلاتِ ، ذي وَجْهٍ مَليحٍ ، حُلْمِ كُلِّ فَتاةٍ مِنْ قَوْمِها ، وهُوَ يُحِبُّها ، لا يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ عَنْ دارِها وهُوَ غادٍ ورائِحٌ كُلَّ يَوْمٍ .

جاءَ مَوْعِدُ الزِّفافِ و وَصَلَ « عَمْرُو بْنُ عُدَس » في قَوْمِهِ ، فَتَزَوَّجَ « دَخْتَنُوس » ، وأَخَذَها مَعَهُ إِلى دِيارِهِ في مَوْكِبٍ كَبيرٍ ، تَسْبِقُهُ الطُّبولُ والدُّفوفُ تَرْحيبًا بالعَروسِ .
رَفَعَ « عَمْرُو بْنُ عُدَس » خِمارَها وهِيَ في خِدْرِهِ فَقالَتْ لَهُ :

« إِنَّني أُبْغِضُكَ ، أَيُّها الشَّيْخُ العَجوزُ ، لَوْ كانَ أَمْري بِيَدي لَما تَزَوَّجْتُكَ ولَوْ وَضَعوا مالَ الدُّنْيا إِلى جِواري . »

وَلَمْ يَغْضَبِ الشَّيْخُ الْمُدَلَّهُ وهُوَ يَرى عَروسَهُ الجَميلَةَ أَمامَهُ ، بَلْ قالَ لَها :

« وإِنَّني أُحِبُّكِ ، أَيَّتُها الجَميلَةُ ، وسَأَضَعُ مالي تَحْتَ قَدَمَيْكِ . »

اسْتَطاعَتْ « دَخْتَنُوس » أَنْ تُذيقَ الشَّيْخَ العَذابَ أَلْوانًا كُلَّ يَوْم ، هِيَ تَزيدُ في إِهانَتِهِ وهُوَ يَزْدادُ في سَخائِهِ وتَدْليلِها ، حَتّى لَمْ يَسْتَطِعِ الشَّيْخُ أَنْ يُواصِلَ حِلْمَهُ وصَبْرَهُ عَلى الْمَرْأَةِ الَّتي تَزَوَّجَها ، ولَمْ يَنْعَمْ في قُرْبِها بِلَحْظَةٍ مِنَ السَّعادَةِ ، فَقالَ لَها يَوْمًا :

« ماذا تُريدينَ ، يا امْرَأَةُ ؟ لَقَدْ قَدَّمْتُ لَكِ كُلَّ ما يُمْكِنُ لِرَجُلٍ أَنْ يُقَدِّمَهُ لامْرَأَةٍ مِنْ مالٍ وعَطْفٍ وحُبٍّ وتَدْليلٍ دونَ جَدْوى . لَمْ أَجِدْ مِنْكِ إِلا سُوءَ الخُلُقِ والبُغْضِ . »

فَقالَتْ لَهُ « دَخْتَنُوس » : « طَلِّقْني ، أَيُّها الشَّيْخُ ، وخُذْ أَمْوالَكَ . لا أُريدُ مِنْكَ شَيْئًا . »

طَلَّقَها « عَمْرُو بْنُ عُدَس » ، وبَعَثَ بِها إِلى أَبيها ،

الَّذي عَنَّفَها عَلى سُوءِ خُلُقِها مَعَ الرَّجُلِ الَّذي أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، فَقابَلَتْ إِحْسانَهُ بِالجَفاءِ والبُغْضِ . وتَزَوَّجَتْ « دَخْتَنُوس » فَتى أَحْلامِها الفَقيرِ ، فَأَخَذَها ورَحَلَ بَعيدًا عَنْ دِيارِ قَوْمِها . أَقاما في خَيْمَةٍ مُتَواضِعَةٍ تَرْعى مَعَهُ الأَغْنامَ ، سَعيدَةً مَعَ الرَّجُلِ الَّذي أَحَبَّتْهُ .

مَرَّ العامُ و وَلَدَتْ « دَخْتَنُوس » أَوَّلَ طِفْلٍ لَها ، وجاءَ العامُ جَدْبًا ، لَمْ تُمْطِرِ السَّماءُ . وجاءَ العامُ التّالي فَأَجْدَبَتْ ثانِيَةً ، و وَضَعَتِ الْمَرْأَةُ طِفْلَها الثّاني . ضاقَ بِهِمُ الحالُ ، ولَمْ يَجِدْ زَوْجُها ما يَفْعَلُهُ حِيالَ الفَقْرِ الَّذي يَعيشونَ فيهِ ، فَفَكَّرَتْ « دَخْتَنُوس »ورَكِبَتْ حِمارَها ، وذَهَبَتْ إِلى « عَمْرِو بْنِ عُدَس » ، فَسَأَلَها عَمّا تُريدُ ، فَقالَتْ لَهُ :

« لَقَدْ رُزِقْتُ بِوَلَدَيْنِ ، وأَجْدَبَتِ السَّنَةُ وَراءَ الأُخْرى ، وضاقَ بِنا الحالُ ، فَجِئْتُكَ أَسْأَلُ أَنْ تُعْطِيَني ناقَةً حَلوبًا حَتّى أُرْضِعَ أَوْلادي . »

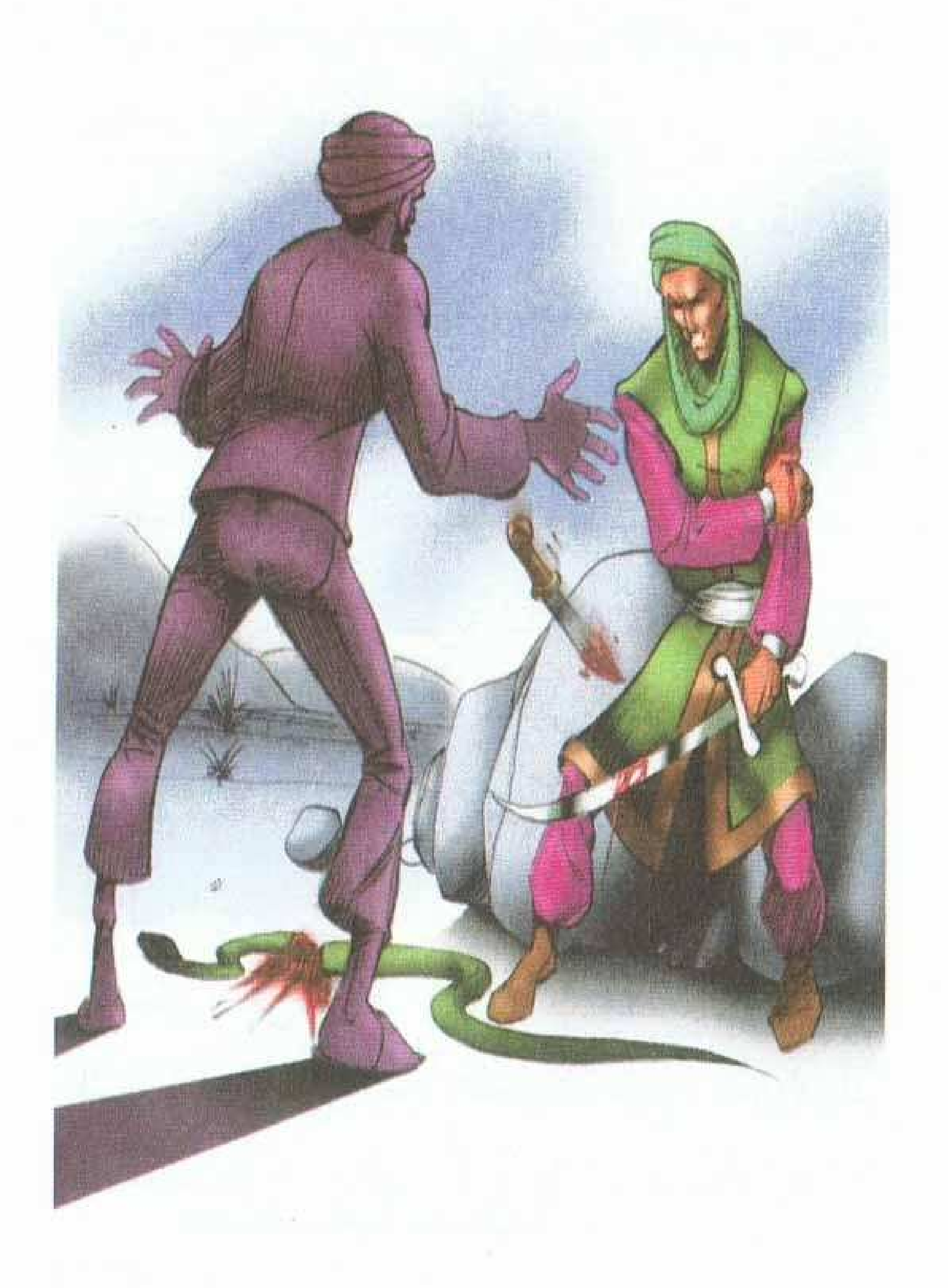
فَضَحِكَ « ابْنُ عُدَس » وقالَ لَها : « في الصَّيْفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ . »

فَصارَ ذَلِكَ مَثَلاً يُضرَبُ لِمَنْ يَطْلُبُ شَيْئًا سَبَقَ أَنْ ضَيَّعَهُ عَلى نَفْسِهِ .

حَدِّثْ عَنْ مَعْنٍ ولا حَرَجَ

نَشَأَ « مَعْنُ بنُ زائِدَة »، مِنْ بَني شَيْبانَ وَسْطَ قَوْمِهِ ، يَسْمَعُهُمْ يَتَحَدَّثونَ عَنْ جَدِّهِ « عَبْدِ اللهِ الشَّيْبانِيِّ »، وكَيْفَ كانَ شَهْمًا كَريمًا شُجاعًا ، فارِسًا لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، يُجيرُ الغَريبَ ويَحْمي الضَّعيفَ ، ويُقْري الضَّيْفَ . عاشَ « مَعْنٌ »طُفولَتَهُ كُلَّها يَحْلُمُ بسيرَةِ جَدِّهِ ، يَجِدُ فيها كُلَّ الصِّفاتِ الَّتي يَرومُها الإنْسانُ ، فَارْتَوى شَبابُهُ بِتِلْكَ الْمُثُلِ فَتَرَسَّخَتْ في طَبائِعِهِ ، فَشَبَّ عَنِ الطَّوقِ وقَدْ جَمَعَ خِصالاً كَريمَةً ، فَأَصبَحَ القَوْمُ يَتيهونَ زَهْوًا وفَخْرًا بوُجودِهِ بَيْنَهُمْ ، وتَناقَلَ القَوْمُ الحَديثَ عَنْ كَرَمِهِ ، يُصَوِّرونَهُ عَلى أَنَّهُ فاقَ جَدَّهُ سيرَةً مُثْلى ، وهُوَ لَمْ يَزَلْ شابًا .

خَرَجَ « مَعْنٌ » يَوْمًا عَلى حِصانِهِ ، يَضْرِبُ في



الصَّحْراءِ ، فَوَجَدَ أعْرابِيًّا يَنامُ إلى جِوارِ صَخْرَةٍ ، ورَأى حَيَّةً رَقْطاءَ تَقْتَرِبُ مِنْهُ ، فَنَزَلَ عَنْ حِصانِهِ ، وهَجَمَ على الحَيَّةِ فَضَرَبَها بِسَيْفِهِ ، فَأَطارَ رَأْسَها فَسَقَطَتْ مَيِّتَةً ، في حينِ هَبَّ الرَّجُلُ مَذْعورًا وقَدْ تَصَوَّرَ أنْ « مَعْن » كانَ يَقْصِدُ قَتْلَهُ ، فَأَخْرَجَ سِكّينًا وطَعَنَ بِهِ « مَعْن » فَجاءَتِ الطَّعْنَةُ في ذِراعِهِ ، فَقالَ لَهُ مَعْنٌ :

« اهْدَأْ ، يا رَجُلُ ، لا أُريدُ بِكَ شَرًّا . لَقَدْ قَتَلْتُ الحَيَّةَ الَّتي كادَتْ تَقْتُلُكَ . »

فَنَظَرَ الرَّجُلُ إلى جِوارِهِ فَرَأى الحَيَّةَ وقَدْ طارَتْ رَأْسُها ، ورَدَّ نَظَرَهُ إلى « مَعْنٍ »، ورَآهُ وهُوَ يُمْسِكُ بِذِراعِهِ وقَدْ تَخَضَّبَتْ بِالدَّم ، فَقالَ الرَّجُلُ : « لا تُؤاخِذْني ، يا أَخا العَرَبِ ، حَسِبْتُكَ تُريدُ بِيَ شَرًّا . »

ورَبَطَ « مَعْنٌ » ذِراعَهُ ، وقالَ لِلرَّجُلِ : « ما دَعاكَ لِلنَّوْمِ هُنا في الصَّحْراءِ ؟»

فَقالَ الرَّجُلُ : « ضاقَ بِي الحالُ ، وسَمِعْتُ عَنْ رَجُلٍ

مِنْ بَني شَيْبانَ يُقالُ لَهُ «مَعْنٌ»، يُكْرِمُ ضَيْفَهُ، ويُجيرُ الغَريبَ، ويَحْمي الضَّعيفَ، فَقُلْتُ فَلأَقْصِدُهُ عَسى أَنْ يَجِدَ لِيَ عَمَلاً عِنْدَهُ أَتَعَيَّشُ مِنْهُ.»

أَحْنَى «مَعْنٌ» رَأْسَهُ اسْتِحْياءً، وقالَ: «أَهْلاً بِكَ وسَهْلاً. هَيّا مَعي. أَنا مَنْ تَقْصِدُهُ.»

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ: «أَ أَنْتَ مَعْنٌ؟»

فَأَجابَهُ «مَعْنٌ»: «نَعَمْ هُوَ أَنا، ولَكَ ما طَلَبْتَ.»

فَقالَ الرَّجُلُ وهُوَ يَنْهَضُ واقِفًا: «العَفْوُ، يا سَيِّدي، جِئْتَ تُنْقِذُ حَياتي فَجَرَحْتُكَ بِسِكّيني. إِنَّني ..»

ولَمْ يَدَعْهُ «مَعْنٌ» يُكْمِلُ حَديثَهُ، وقالَ لَهُ: «هَيّا، يا رَجُلُ.»

حَمَلَ «مَعْن» الأَعْرابِيَّ مَعَهُ عَلى حِصانِهِ، وذَهَبَ بِهِ إِلى دِيارِهِ، فَجَرى القَوْمُ وهُمْ يَرَوْنَ ذِراعَ «مَعْن» وقَدْ تَخَضَّبَتْ بِالدَّمِ، وظَهَرَ الجُرْحُ غائِرًا، يَسْأَلونَهُ الخَبَرَ،

فَضَحِكَ وقالَ:

«سَقَطْتُ مِنْ فَوْقِ حِصاني فَأَنْقَذَني هَذا الرَّجُلُ.»

طَلَبَ «مَعْنٌ» مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يُعِدّوا الدّارَ لِيَسْتَضيفَ الرَّجُلَ، الَّذي لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ وهُوَ يَعيشُ لَحَظاتٍ لا تَتَكَرَّرُ كَثيرًا في العُمُرِ، فَهُوَ يَرى ويَسْمَعُ كَيْفَ تَكونُ مَكارِمُ الأَخْلاقِ تاجًا يُزَيِّنُ رَأْسَ «مَعْنٍ».

جاءَ الصَّباحُ فَاكْتَرى «مَعْنٌ» الأَعْرابِيَّ، يَرْعى الغَنَمَ لِقَوْمِهِ، فَتِلْكَ كانَتْ حِرْفَتَهُ الَّتي لا يُجيدُ غَيْرَها.

سَأَلَهُ «مَعْنٌ» عَنِ الأَجْرِ الَّذي يَطْلُبُهُ، فَقالَ لَهُ الأَعْرابِيُّ: «أَعْمَلُ لَكَ، يا «مَعْنُ»، بِطَعامي ومَبيتي. هَذا هُوَ أَجْري.»

رَفَضَ «مَعْنٌ» ذَلِكَ وقالَ لَهُ:

«طَعامُكَ ومَنْزِلُكَ عِنْدَنا، وأَجْرُكَ تَأْخُذُهُ غَيْرَ مَنْقوصٍ.»

عاشَ الأَعْرابِيُّ وَسْطَ القَوْمِ ، يَخْدُمُ « مَعْن » بإخْلاصٍ وتَفانٍ . كانَ يَرى الغُرَباءَ يَفِدونَ أَمامَ دِيارِ « مَعْنٍ » ، فَيُقْسِمُ أَنْ لا يَبْرَحوا حَتّى يَطْعَموا ويَشْرَبوا ويَسْتَريحوا ، ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ إنْ كانَ لأَحَدِهِمْ حاجَةٌ يَقْضيها لَهُ ، أَو يُريدُ مالاً يَهَبُهُ لَهُ ، فَيَدْعونَ لَهُ بالخَيْرِ . وإنْ سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ شَيْئًا لَمْ يَتَرَدَّدْ « مَعْنٌ » في أَنْ يُجيبَهُ إلى طَلَبِهِ . كانَ يأبى أَنْ يَدَعَ الْمُسافِرَ يَسْتَكْمِلُ طَريقَهُ إلا بَعْدَ إكْرامِهِ وإطْعامِهِ وإراحَةِ دابَّتِهِ .

كانَ الغُرَباءُ والْمُسافِرونَ يَجِدونَ لَدى « مَعْن » كُلَّ وَسائِلِ الرّاحَةِ الَّتي يَبْذُلُها لَهُمْ في سُرورٍ ، وَكَأَنَّهُ يُؤَدّي واجِبًا مَفْروضًا عَلَيْهِ ، فَكانَ يَدْعوهُمْ لَيْلاً لِلجُلوسِ حَوْلَ النّارِ ، يَسْمُرونَ بَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ ، ويَتَناقَلونَ أَخْبارَ القَبائِلِ والأَقْوامِ شِعْرًا ونَثْرًا .

جَلَسَ الأَعْرابِيُّ في الْمَساءِ حَوْلَ النّارِ ، ومَعَهُ عَدَدٌ مِنَ الْمُسافِرينَ وعابِري السَّبيلِ مِمَّنْ نَعِموا بِكَرَمِ « مَعْنٍ » ،

فَقالَ أَحَدُهُمْ لِلأَعْرابِيِّ :

« يا أَخا العَرَبِ ، ما قيلَ عَنْ ‹‹ مَعْن ›› وكَرَمِهِ وحُسْنِ السَّجايا لا يَكْفيهِ . لَقَدْ وَجَدْنا في اسْتِقْبالِهِ لَنا وتَرْحيبِهِ بِنا ما لَمْ نَكُنْ نَظُنُّهُ مَوْجودًا في هَذِهِ الدُّنْيا . لَقَدْ خِلْتُ أَنَّني أَعْرِفُهُ مُنْذُ سِنينَ أَوْ أَنَّهُ مِنْ أَقْرَبِ أَهْلي . »

فَابْتَسَمَ الأَعْرابِيُّ وقالَ لِلضَّيْفِ : « حَدِّثْ عَنْ مَعْنٍ ولا حَرَجَ . »

وصارَ مَثَلاً يُضْرَبُ لِمَنْ يُريدُ أَنْ يَتَوَسَّعَ في الأَمْرِ .

رَجَعَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ

حَمَّلَ الأعْرابِيُّ ناقَتَهُ بِما اشْتَرَى مِنْ بِضاعَةٍ ، يَسْتَعِدُّ لِلعَوْدَةِ إلى دِيارِهِ بِتِجارَتِهِ ، وَيُمَنِّي نَفْسَهُ بِمَكْسَبٍ كَبِيرٍ . سارَ في الطَّرِيقِ يُمْسِكُ بِمِقْوَدِ ناقَتِهِ ، وعَقْلُهُ مَشْغُولٌ يُفَكِّرُ لِمَنْ يَبِيعُ وكَمْ يَطْلُبُ ، فَمَرَّ بِحانُوتٍ صَغِيرٍ يَجْلِسُ فيهِ إسْكافِيٌّ يُصْلِحُ الأَخْفافَ والنِّعالَ . وَقَفَ أَمامَهُ وقالَ : « أَعِنْدَكَ خُفٌّ جَدِيدٌ أَشْتَرِيهِ ، يا هَذا ؟ »

قالَ الإسْكافِيُّ : « إنَّ اسْمِيَ هُوَ ‹‹ حُنَيْنُ الإسْكافِيُّ ››. نَعَمْ عِنْدي خُفٌّ . »

وأَراهُ « حُنَيْن » الخُفَّ ، فَظَلَّ الأعْرابِيُّ يُقَلِّبُ فيهِ ، ويَشُدُّهُ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ .

سَأَلَهُ حُنين : « ماذا تَفْعَلُ بالخُفِّ ، يا هَذا ؟ »

قالَ الأَعْرابِيُّ : « أَخْتَبِرُ مَتانَةَ صَنْعَتِهِ . »

قالَ الإِسْكافِيُّ : « إِنَّكَ تَكادُ أَنْ تُمَزِّقَهُ ، يا رَجُلُ . »

فَسَأَلَهُ الأَعْرابِيُّ عَنْ ثَمَنِ الخُفِّ ، فَقالَ لَهُ « حُنين » : « دِرْهَمانِ . »

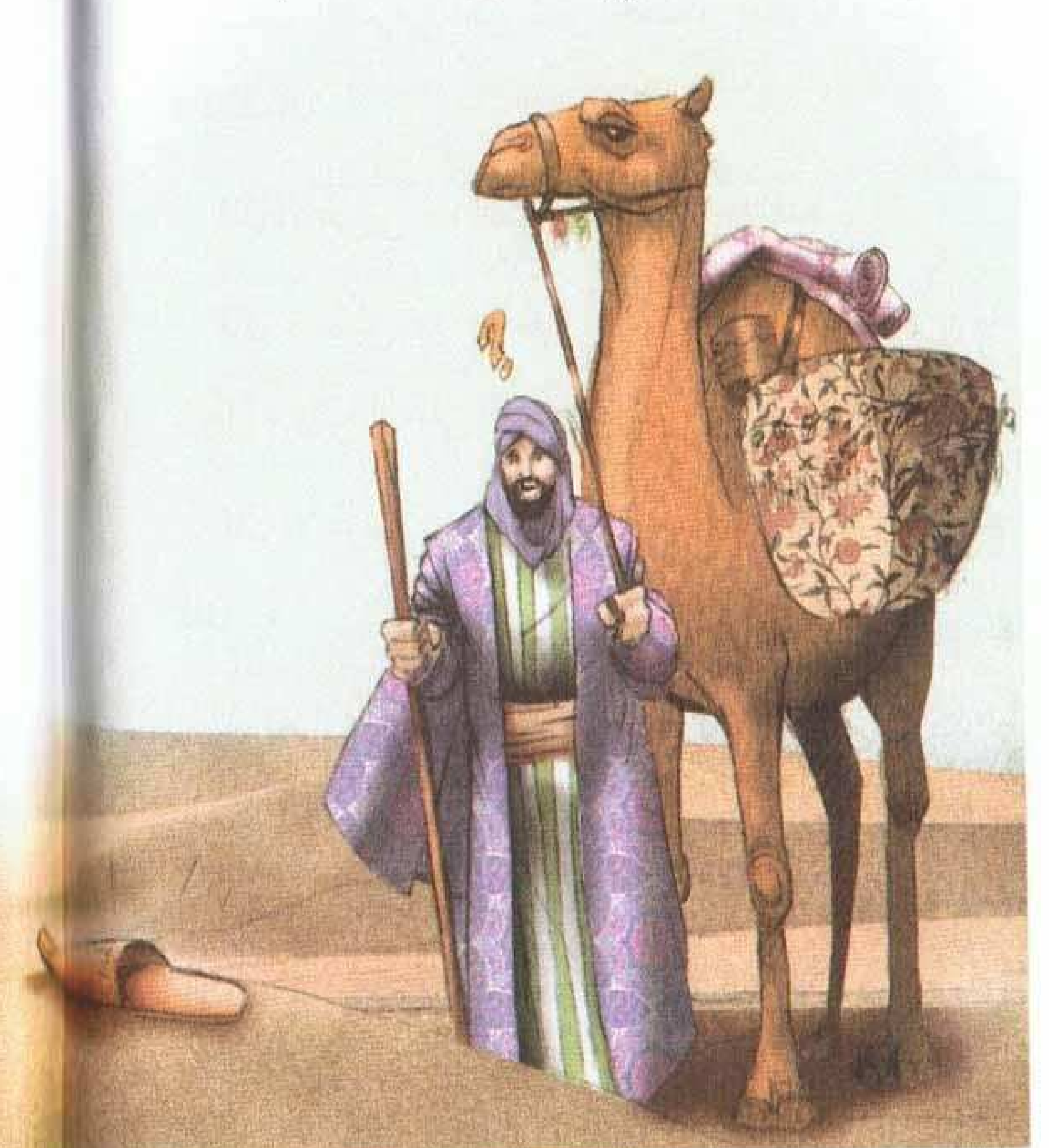
قالَ الأَعْرابِيُّ : « أَشْتَرِيهِ بِدِرْهَمٍ واحِدٍ فَقَطْ . »

قالَ « حُنَيْن » : « مَعَكَ ناقَةٌ مُحَمَّلَةٌ بالبَضائِعِ ، يا رَجُلُ ، وتَبْخَلُ عَلى الخُفِّ بِدِرْهَمٍ ؟ »

قالَ الأَعْرابِيُّ : « أَشْتَرِيهِ بِدِرْهَمٍ واحِدٍ فَقَطْ كَما قُلْتُ لَكَ . »

ورَفَضَ « حُنين » العَرْضَ ، وأَبى الأَعْرابِيُّ أَنْ يَزِيدَ السِّعْرَ ، وهُوَ يُمْسِكُ بالخُفِّ لا يُرِيدُ أَنْ يُعِيدَهُ إلى « حُنين » . والإِسْكافِيُّ مُصَمِّمٌ عَلى السِّعْرِ الَّذي طَلَبَهُ . سَأَلَ « حُنين » الأَعْرابِيَّ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهِ خُفَّهُ لأَنَّهُ قَرَّرَ أَنْ لا يَبِيعَهُ إِيّاهُ بِأَيِّ

سِعْرٍ ، فَتَطَوَّرَ الأَمْرُ إِلى مُشادَّةٍ ، وتَجَمَّعَ النّاسُ ، كُلُّ واحِدٍ يَتساءَلُ عَنِ القِصَّةِ فيَحْكي الأعْرابيُّ قِصَّتَهُ وكَيْفَ يَتَشَدَّدُ « حُنين » في طَلَبِهِ ، ثُمَّ يَحْكي « حُنَيْن » قِصَّتَهُ وأَنَّهُ لَنْ يَبيعَ الخُفَّ لِهَذا الأَعْرابِيِّ ولَوْ دَفَعَ ثَمَنَهُ مائَةَ مَرَّةٍ .



أَعادَ الأَعْرابيُّ الخُفَّ إلى « حُنين » ومَشى . و وَجَدَ « حُنين » أَنَّهُ أَضاعَ مِنْ وَقْتِهِ ساعاتٍ دونَ عَمَلٍ ودونَ مَكْسَب ، بَلْ إنَّ الأعْرابيَّ أَفْقَدَهُ هُدوءَهُ إلى جانِبِ وَقْتِهِ ، فَقَرَّرَ أَنْ يَكيدَ لَهُ جَزاءَ فَعْلَتِهِ .

أَخَذَ « حُنين » الخُفَّ وجَرى مِنْ طَريق جانِبيٍّ حَتّى سَبَقَ الأعْرابيَّ ، فَرَمى بِشِقٍّ مِنَ الخُفِّ وَسَطَ الطَّريقِ ، ثُمَّ جَرى ثانِيَةً حَتّى وَجَدَ نَخلاً كَثيرًا فَرَمى بالشِّقِّ الآخَرِ مِنَ الخُفِّ . واخْتَفى « حُنين » وراءَ النَّخيلِ يَنْتَظِرُ .

مَرَّ الأَعْرابيُّ بالطَّريقِ ، فَوَجَدَ شِقَّ الخُفِّ فَقالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ، وهُوَ يَنْظُرُ إلَيْهِ : « ما أَشْبَهُ هَذا بِخُفِّ « حُنين » ! لَوْ كانَ مَعَهُ الشِّقُّ الآخَرُ لأَخَذْتُهُ . »

وتَرَكَهُ الأَعْرابيُّ ومَضى في طَريقِهِ ، حَتّى جاءَ إلى جِوارِ النَّخيلِ ، فَرَأَى الشِّقَّ الثّاني مِنَ الخُفِّ ، فَوَقَفَ في حَيْرَةٍ ، وقالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

« لَوْ كُنْتُ قَدْ أَخَذْتُ الشِّقَّ الأَوَّلَ ، ثُمَّ وَجَدْتُ هَذا لأَصْبَحَ عِنْدي خُفٌّ كامِلٌ . »

سارَعَ الأَعْرابيُّ فَعَقَلَ ناقَتَهُ وَرَبَطَها إلى واحِدَةٍ مِنَ النَّخيلِ الَّذي يَكْمُنُ وراءَهُ « حُنين »، وأَسْرَعَ يَجْري لِيَلْتَقِطَ الشِّقَّ الأَوَّلَ ، فَأَسْرَعَ « حُنين » وفَكَّ النّاقَةَ مِنْ عِقالِها وأَخَذَها وهَرَبَ بما حَمَلَتْ .

عادَ الأَعْرابيُّ إلى حَيْثُ رَبَطَ ناقَتَهُ ، فَلَمْ يَجِدْها فَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْها في كُلِّ مَكانٍ ، ويَسْأَلُ النّاسَ عَنْها فلا يُجيبُهُ أَحَدٌ بِقَوْلٍ شافٍ . فَقَدَ الأَعْرابيُّ كُلَّ الأَمَلِ في العُثور عَلى ناقَتِهِ وبِضاعَتِهِ ، فَأَكْمَلَ السَّيْرَ وَحْدَهُ نادِمًا حَتّى وَصَلَ دِيارَهُ ، فَسَأَلَهُ قَوْمُهُ : « بِماذا أَتَيْتَ مِنْ سَفَرِكَ ؟»

فَقالَ الأَعْرابيُّ : « رَجَعْتُ بِخُفَّيْ حُنينٍ . »

فَصارَ مَثَلاً يُضْرَبُ لِمَنْ عادَ إلى أَهْلِهِ ، وقَدْ خابَ أَمَلُهُ ، ويَئِسَ مِنَ الحُصولِ عَلى حاجَتِهِ .

أَخْلَفُ مِنْ عُرْقُوب

يُحكى أَنَّ « عُرْقوب » كانَ رَجُلاً مِنَ العَماليق ، مِنَ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ الَّتي جاءَتْ مِنَ اليَمَن . وكانَتْ لَهُ بَساتينُ وأَمْلاكٌ تُمَيِّزُهُ عَنْ أَهْلِهِ ؛ فَقَدْ عَمِلَ بالتِّجارَةِ ، فَاكْتَسَبَ أَمْوالاً اشْتَرى مِنْها ضَيْعَةً وارِفَةً مُمْتَلِئَةً بالنَّخْلِ .

جاءَهُ أَخٌ لَهُ فَقيرٌ، وقالَ له : « جِئْتُكَ ، يا ‹‹ عُرْقوبُ ›› أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْطِيَني شَيْئًا مِنْ مالِكَ أَرْتَزِقُ مِنْهُ ، فَلَقَدْ ضاقَ بِيَ الحالُ . »

قالَ لَهُ « عُرْقوب » : « نَعَمْ ، يا أَخي ، لَكَ عَلَيَّ أَنْ أُساعِدَكَ لِتَبْدَأَ عَمَلاً أَوْ تِجارَةً تَسْتَعينُ بِها عَلى حَياتِكَ . »

وابْتَسَمَ الشَّقيقُ يَشْكُرُ « عُرْقوب » عَلى أَرْيَحِيَّتِهِ ،

ويَنْتَظِرُ مِنْهُ ما سَوْفَ يُعْطيهِ . نَظَرَ « عُرْقوب » أَمامَهُ فَوَجَدَ نَخْلَةً غَيْرَ مُثْمِرَةٍ ، فَقالَ لأَخيهِ : « اِسْمَعْ ، يا أَخي إذا أَطْلَعْتَ هَذِهِ النَّخْلَةَ ، وأَثْمَرَتْ فَلَكَ ثَمَرُها . »

وفَتَحَ أَخو « عُرْقوب » فَمَهُ دَهْشَةً مِنَ العَرْضِ الَّذي قَدَّمَهُ أَخوهُ ، لَكِنَّهُ قالَ : « إذًا ، فَلأَعْمَلْ ، ولأَنْتَظِرْ . »

أَطْلَعَ الرَّجُلُ النَّخْلَةَ ، وامْتَلأَتْ بالعَثاكيلِ (الغُصون) الَّتي تَحْمِلُ صِغارَ البَلَح . جاءَهُ أَخوهُ وقَدْ فَرِحَ بِما رَأى مِنْ بَشائِرَ وافِرَةٍ لِما سَوْفَ تُعْطيهِ النَّخْلَةُ مِنْ مَحْصول ، فَقالَ لَهُ « عُرْقوب » : « اُنْظُرْ إلى النَّخْلَةِ وطَرْحِها . »

فَقالَ الأَخُ وهُوَ لا يُخْفي فَرَحَهُ : « نَعَمْ ، يا ‹‹ عُرقوبُ ›› ، لَقَدْ ضاقَ بِيَ الحالُ . مَتى نَقْطَعُها ؟ »

قالَ « عُرقوب » : « دَعْها حَتّى تَصيرَ بَلَحًا ثُمَّ اجْنِ مَحْصولَها . »

انْصَرَفَ الشَّقيقُ ، ثُمَّ عادَ وقَدْ أَبْلَحَتِ النَّخْلَةُ ، فَسَأَلَ « عُرقوب » أَنْ يَفِيَ بِوَعْدِهِ ، فَيَتْرُكَهُ يَأْخُذُ البَلَحَ ، فَقالَ لَهُ

« عُرْقوب »: « إنّني أبْحَثُ عَنْ صالِحِكَ فَأنْتَ أخي . دَعْهُ حَتّى يَتَلَوَّنَ ، ويُصْبِحَ زَهْوًا فَتَكْسِبَ في بَيْعِهِ أكْثَرَ . »

فَانْصَرَفَ الشَّقيقُ عَلى مَضَضٍ ، وعادَ إلى أخيهِ وقَدْ زَهَتِ النَّخْلَةُ ، يَطْلُبُ مِنْ « عُرْقوب » أَنْ يَبرَّ بِوَعْدِهِ ، فَيَتْرُكَهُ يَأْخُذَ البَلَحَ ، فَوَضَعَ « عُرْقوب » يَدَهُ عَلى كَتِفِ شَقيقِهِ ، وقالَ لَهُ : « انظُرْ إلى ثَرْوَتي . ألا تَثِقُ في أخيكَ ؟ أُريدُ لَكَ أحْسَنَ شَيْءٍ . دَعْهُ حَتّى يَصيرَ رُطَبًا فَتَبيعَ الرُّطَبَ بِضِعْفِ ثَمَنِ البَلَحِ . »

مَضى الأخُ إلى حالِ سَبيلِهِ ، وهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يُقْنِعَ نَفْسَهُ بِأَنَّ « عُرْقُوب » عَلى حَقٍّ ، فَلَوْلا مَهارَتُهُ في التِّجارَةِ ما اسْتَطاعَ أَنْ يَجْنِيَ كُلَّ تِلْكَ الثَّرْوَةِ . وانْتَظَرَ الشَّقيقُ حَتّى صارَ البَلَحُ رُطَبًا ، فَذَهَبَ إلى أخيهِ « عُرْقوب » ، وقَدِ اسْتَعَدَّ لِجَنْيِ الرُّطَبِ ، فَقالَ لَهُ « عُرْقوب »:

« اسْمَعْ ، يا أخي ، لَوْ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَبيعَ الرُّطَبَ

خِلالَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ ، فَإنَّ الرُّطَبَ سَوْفَ يَفْسُدُ ويَضيعُ عَلَيْكَ مَكْسَبٌ كَبيرٌ . دَعِ الرُّطَبَ عَلى النَّخْلَةِ حَتّى يَصيرَ تَمْرًا ؛ فَإنَّ التَّمْرَ لا يَفْسُدُ مَعَ الأيّامِ . سَوْفَ تَبيعُ كُلَّ المَحْصولِ وتَكْسِبُ أَضْعافَ مَكْسَبِ الرُّطَبِ . »

أَقْنَعَ الأخُ نَفْسَهُ بِأَنَّ « عُرْقُوب » رَجُلٌ مُحَنَّكٌ ، ذو خِبْرَةٍ عَريضَةٍ في البَيْعِ والشِّراءِ ، فَمَضى إلى حالِ سَبيلِهِ ، يَنْتَظِرُ أَنْ يَصيرَ الرُّطَبُ تَمْرًا فَيَجْنيهِ . ورَأى « عُرْقوب » أَنَّ النَّخْلَةَ أَثْمَرَتْ ، فَعَمَدَ إلَيْها في اللَّيْلِ وقامَ بِقَطْعِ التَّمْرِ ، وأَخْفاهُ في بَيْتِهِ . وجاءَ الأخُ ، فَوَجَدَ النَّخْلَةَ خاوِيَةً ، فَسَأَلَ « عُرْقوب » عَنِ التَّمْرِ ، فَقالَ لَهُ « عُرْقوب »:

« خِفْتُ أَنْ لا تَأْتِيَ فَيَأْكُلَ الطَّيْرُ بَقِيَّةَ التَّمْرِ ، فَجَمَعْتُهُ ولا أَدْري أَيْنَ ذَهَبَ التَّمْرُ الَّذي تَرَكْتُهُ تَحْتَ النَّخْلَةِ . »

قالَ الأخُ : « أَخْلَفْتَ وَعْدَكَ ، يا عُرْقوب ، ولَيْسَ هُناكَ أَخْلَفُ مِنْ عُرْقوب . »

وصارَ مَثَلاً يُضْرَبُ فيمَنْ يُخْلِفُ وَعْدَهُ .

أَحْمَقُ مِنْ شَرَنْبَث

يُحْكى أَنَّ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ يُدْعَى « شَرَنْبَث »، كانَ مَعْروفًا بَيْنَ القَوْمِ بِطيبَةِ قَلْبِه، وسَلامَةِ طَوِيَّتِهِ ، وأَنَّهُ يُصَدِّقُ كُلَّ النّاسِ . كانَ رِزْقُ « شَرَنْبَث » واسِعًا ، هَكَذا أَرادَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

كانَ « شَرَنْبَث » يَذْهَبُ إلى السّوق ، فَيَراهُ بائِعُ الغَنَم ، فَيُعْطيهِ ما مَعَهُ ، كَبْشًا كانَ أَوْ نَعْجَةً ويَطْلُبُ ثَمَنَها ، فَيُعْطيه « شَرَنْبَث » ما طَلَبَهُ دونَ نِقاش ، ويَخْرُجُ بِها مِنَ السّوق فَيُقابِلُهُ رَجُلٌ فَيَسْأَلُهُ : « أَتَبيعُ ما مَعَكَ ؟» فَيَقولُ « شَرَنْبَث » : « اِشْتَرَيْتُهُ بِخَمْسَةِ دَراهِمَ ، فَكَمْ تَدْفَعُ ؟»

فَيَضْحَكُ الرَّجُلُ ويَقولُ لَهُ : « آخُذُهُ بِسِتَّةِ دَراهِمَ . »

فَيُعْطيهِ « شَرَنْبَث » البَيْعَةَ ، ويَأْخُذُ الدَّراهِمَ ، ويَعودُ

إلى السّوق ، يَشْتَري نَعْجَةً ويَخْرُجُ بِها مِنَ السّوقِ فَيَلْقاهُ مُشْتَرٍ آخَرُ فَيَأْخُذُها مِنْهُ ويُكْسِبُهُ دَراهِمَ .

يَذْهَبُ « شَرَنْبَث » إلى دارِهِ فَيَقُصُّ عَلى امْرَأَتِهِ ما فَعَلَهُ في يَوْمِهِ ، ويُعْطيها ما كَسَبَهُ مِنَ المالِ ، وتَفْرَحُ الزَّوْجَةُ بالرِّزْقِ الْمُنْهَمِرِ عَلَيْهِما ، فَتَقومُ وتَأْتي بإناء تُخْفيهِ تَحْتَ فِراشِهِما ، وتَضَعُ فيهِ الدَّراهِمَ ، حَتّى امْتَلأَ بِها الإِناءُ ،



فَخَرَجَتْ يَوْمًا واشْتَرَتْ صُنْدوقًا ، وَضَعَتْ فيهِ الدَّراهِمَ ، وراحَتْ تَضَعُ فيهِ مَكاسِبَ « شَرَنْبَث » كُلَّ يَوْمٍ حَتّى امْتَلأَ الصُّنْدوقُ ، فَقالَتْ لِزَوْجِها وهِيَ تَهْمِسُ :

« أَخافُ ، يا ‹‹ شَرَنْبَث ›› ، أَنْ يَعْرِفَ اللُّصوصُ أَنَّ عِنْدَنا كُلَّ هَذِهِ الدَّراهِمِ فَيَسْرِقونا بَعْدَ أَنْ يَقْتُلونا . »

وشَعَرَ زَوْجُها بِالخَوْفِ فَسَأَلَها الرَّأْيَ فيما يَفْعَلانِهِ بِتِلْكَ النُّقودِ فَقالَتْ لَهُ :

« لَيْتَنا نَسْتَطيعُ أَنْ نُخْفِيَها في مَكانٍ أَمينٍ بَعيدًا عَنْ بَيْتِنا ، وعِنْدَما نَحْتاجُ مِنْها شَيْئًا تَذْهَبُ إِلى الْمَكانِ فَتَأْتي لَنا بِما نَحْتاجُهُ . »

أُعْجِبَ « شَرَنْبَث » بِالفِكْرَةِ ، فَأَخَذَ صُنْدوقَ الدَّراهِمِ ولَفَّهُ بِعِنايَةٍ في بُرْدَةٍ لَدَيْهِ ، وقالَ لامْرَأَتِهِ :

« سَوْفَ أُخْفي الصُّنْدوقَ في مَكانٍ لا يَعْرِفُهُ سِوايَ . »

خَرَجَ « شَرَنْبَث » عَلى حِمارِهِ فَتَوَغَّلَ في الصَّحْراءِ ،

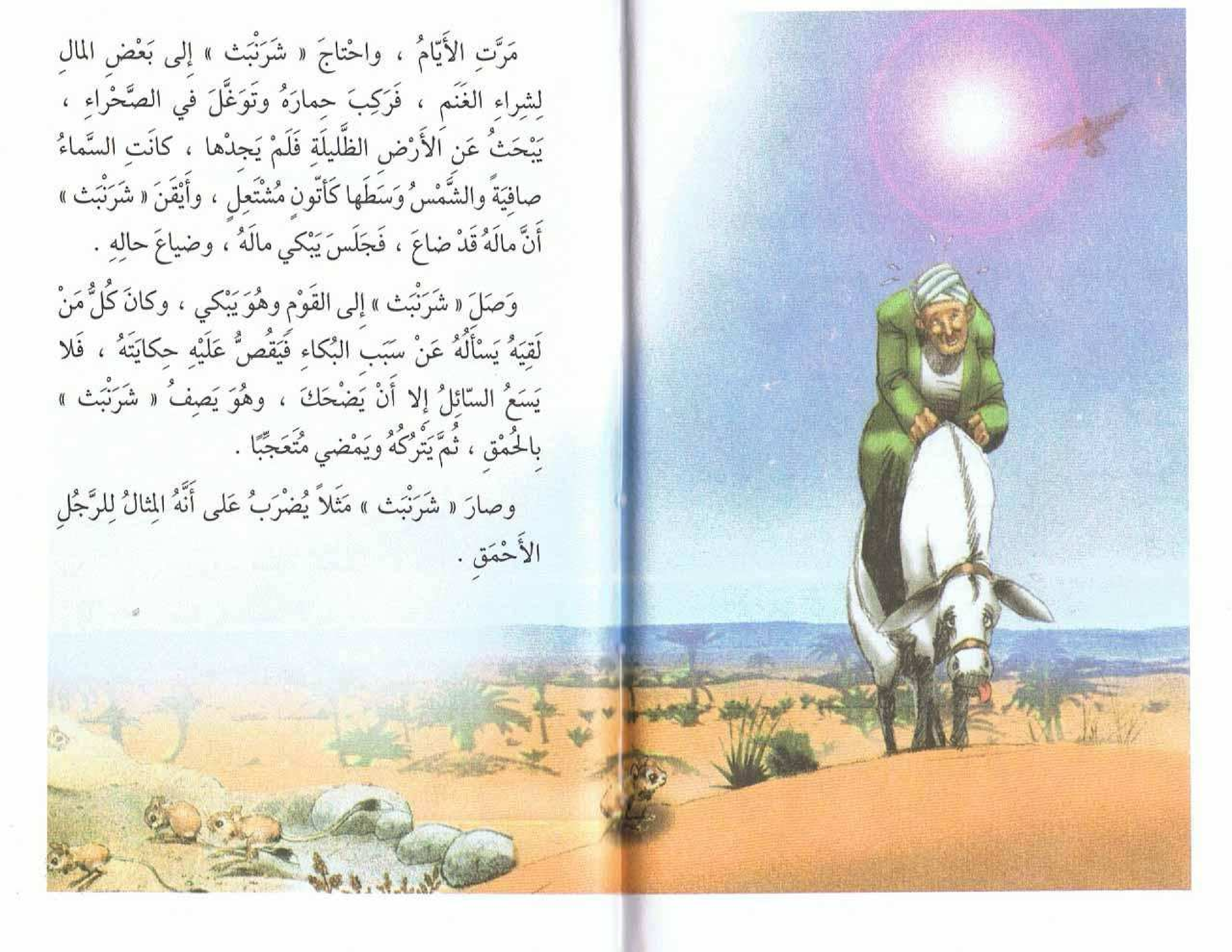
ونَظَرَ حَوْلَهُ فَلَمْ يَجِدْ سِوى الرِّمالِ ، تَلَفَّتَ حَوْلَهُ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا ، فَأُعْجِبَ بِالْمَكانِ الَّذي يَقِفُ فيهِ ، وقالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

« إِنَّهُ مَكانٌ أَمينٌ حَقًّا . »

ونَزَلَ عَنْ حِمارِهِ ، وأَسْرَعَ إِلى الأَرْضِ فَحَفَرَ فيها حُفْرَةً ، و وَضَعَ صُنْدوقَ دَراهِمِهِ فيها و واراهُ بِالرِّمالِ . وقالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ : « عِنْدَما أُريدُ الدَّراهِمَ فَإِنَّني سَوْفَ أَعْرِفُ مَكانَها فَوْرًا ، فَهِيَ في هَذِهِ الأَرْضِ الظَّليلَةِ . » فَقَدْ كانَ ظِلُّ سَحابَةٍ كَبيرَةٍ مُمْتَدًّا فَوْقَ الأَرْضِ الَّتي يَقِفُ عَلَيْها « شَرَنْبَث » .

عادَ « شَرَنْبَث » إِلى بَيْتِهِ فَسَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ : « ماذا فَعَلْتَ ، يا ‹‹ شَرَنْبَث ›› ؟ »

فَقَصَّ عَلَيْها زَوْجُها كَيْفَ أَنَّهُ اخْتارَ مَكانًا لَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ أَبَدًا ؛ لِيُخْفِيَ فيهِ صُنْدوقَ دَراهِمِهِ ، فَاطْمَأَنَّتِ الْمَرْأَةُ ، وناما .



مَرَّتِ الأَيّامُ ، واحْتاجَ « شَرَنْبَث » إلى بَعْضِ المالِ لِشِراءِ الغَنَم ، فَرَكِبَ حِمارَهُ وتَوَغَّلَ في الصَّحْراءِ ، يَبْحَثُ عَنِ الأَرْضِ الظَّليلَةِ فَلَمْ يَجِدْها ، كانَتِ السَّماءُ صافِيَةً والشَّمْسُ وَسَطَها كَأَتّونٍ مُشْتَعِلٍ ، وأَيْقَنَ « شَرَنْبَث » أَنَّ مالَهُ قَدْ ضاعَ ، فَجَلَسَ يَبْكي مالَهُ ، وضياعَ حالِهِ .

وَصَلَ « شَرَنْبَث » إلى القَوْمِ وهُوَ يَبْكي ، وكانَ كُلُّ مَنْ لَقِيَهُ يَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ البُكاءِ فَيَقُصُّ عَلَيْهِ حِكايَتَهُ ، فَلا يَسَعُ السّائِلُ إلا أَنْ يَضْحَكَ ، وهُوَ يَصِفُ « شَرَنْبَث » بِالحُمْقِ ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ ويَمْضي مُتَعَجِّبًا .

وصارَ « شَرَنْبَث » مَثَلاً يُضْرَبُ عَلى أَنَّهُ المِثالُ لِلرَّجُلِ الأَحْمَقِ .

أَطْمَعُ مِنْ أَشْعَب

كانَ أَشْعَبُ مِنْ سُكّانِ الْمَدينَةِ ، وقَدِ اشْتُهِرَ بِطَمَعِهِ . مَرَّ يَوْمًا بِرَجُلٍ فَوَجَدَهُ يَأْتي بِالطِّينِ ، يُبَلِّلُهُ بِالماءِ ، ويَصْنَعُ مِنْهُ أَطْباقًا يُجَمِّعُها ثُمَّ يَضَعُها إِلى جِوارِهِ حَتّى يَنْتَهِيَ الطِّينُ ، ويَتْرُكُها حَتّى تَجِفَّ ثُمَّ يَعْمَلُ في صَبْرٍ شَديدٍ ، يُبَلِّلُ الطِّينَ كُلَّما جَفَّ بِالماءِ ، ثُمَّ يَصْنَعُ الطَّبَقَ في تَأَنٍّ ويَضَعُهُ إِلى جِوارِهِ ، فَسَأَلَهُ أَشْعَبُ : « ماذا تَفْعَلُ ، يا رَجُلُ ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ : « إِنَّكَ تَقِفُ أَمامي مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ ، ثُمَّ تَسْأَلُني ؟ . . أَصْنَعُ أَطْباقًا . »

فَقالَ أَشْعَبُ : « ولِماذا تَصْنَعُها صَغيرَةً ، يا رَجُلُ ؟»

فَقالَ الصّانِعُ : « هَكَذا هِيَ ، صَحْنٌ ذو طَوْقٍ واحِدٍ . »

قالَ أَشْعَبُ : « أُحِبُّ أَنْ تُزيدَ في الأَطْباقِ طَوْقًا آخَرَ فَيُصْبِحَ الطَّبَقُ كَبيرًا . »

سَأَلَهُ الرَّجُلُ : « أَتَوَدُّ شِراءَ مِثْلِ هَذِهِ الأَطْباقِ الكَبيرَةِ ؟»

فَقالَ أَشْعَبُ : « لا ، لَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكونَ الطَّبَقُ كَبيرًا ؛ فَقَدْ يُهْدى إِلَيَّ شَيْءٌ فيه . »

كانَ أَشْعَبُ إِذا مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلونَ ، يُلْقي بِالتَّحِيَّةِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَجْلِسُ بَيْنَهُمْ يَأْكُلُ ، فَسَأَلَهُ أَحَدُهُمْ ذاتَ مَرَّةٍ :

« هَلْ دَعاكَ أَحَدٌ ، يا أَشْعَبُ ؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَشْعَبُ وهُوَ يَلوكُ الطَّعامَ في فَمِهِ :

« نَعَمْ . سَوْفَ أُخْبِرُكَ بَعْدَ الغَداءِ إِنْ أَرَدْتَ . »

ونَزَلَ أَشْعَبُ يَوْمًا عَلى قَوْمٍ يَأْكُلونَ ، فَجَلَسَ بَيْنَهُمْ يَأْكُلُ بِشَراهَةٍ ، فَقالَ صاحِبُ الدّارِ وهُوَ يَرى شَراهَةَ



أَشْعَبَ وتَجَنُّبُهُ الحَديثَ لِلتَّفَرُّغِ لِلأَكْلِ :

« عَلى كُلِّ واحِدٍ مِنَ الجالِسينَ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْنا كَيْفَ ماتَ جَدُّهُ . »

فَبَدَأَ القَوْمُ يَتَحَدَّثونَ واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ ، في حين انْكَبَّ أَشْعَبُ عَلى الطَّعامِ ، لا يَلْتَفِتُ إِلى الحَديثِ الدّائِرِ ، ولاحَظَ صاحِبُ الدّارِ ذلِكَ فَسَأَلَ أَشْعَبَ :

« قُلْ لَنا ، يا أَشْعَبُ ، كَيْفَ ماتَ جَدُّكَ ؟ اِحْكِ لَنا . »

فَقالَ أَشْعَبُ وهُوَ يَزْدَرِدُ قِطْعَةً كَبيرَةً مِنَ اللَّحْمِ :

« ماتَ جَدّي فَجْأَةً . » ثُمَّ اسْتَمَرَّ في الأَكْلِ .

وكانَ أَشْعَبُ دائِمَ التَّجْوالِ في طُرُقِ الْمَدينَةِ ، فَإِذا ما اشْتَمَّ رائِحَةَ الطَّعامِ في إِحدى الدِّيارِ – اتَّجَهَ إِلَيْهِ ، وقَرَعَ البابَ ، فَيَسْأَلُ صاحِبُ الدّارِ عَنِ الطّارِقِ فلا يَرُدُّ أَشْعَبُ ،

فَيَفْتَحُ الرَّجُلُ البابَ لِيَرى ذَلِكَ الَّذي لا يَرُدُّ ، فَيَجِدُ أَشْعَبَ فَيَسْأَلُهُ : « ماذا تُريدُ ؟ »

فَيَقولُ لَهُ أَشْعَبُ : « مَرَرْتُ بِكَ لأَسْأَلَكَ إِنْ كُنْتَ تُريدُ مِنّي شَيْئًا . »

فَيَشْكُرُهُ الرَّجُلُ ، فَيَقولُ لَهُ أَشْعَبُ :

« أَلا تَدْعوني ، يا رَجُلُ ، إِلى بَيْتِكَ ؟ لَقَدْ جِئْتُ لأُعاوِنَكَ . »

فَيَسْأَلُهُ الرَّجُلُ مُنْدَهِشًا :

« وَهَلْ طَلَبْتُ مِنْكَ مَعونَةً ، يا أَشْعَبُ ؟ »

فَيَقولُ لَهُ أَشْعَبُ :

« نَعَمْ . إِنَّني أَشْتَمُّ رائِحَةَ مَنْ يَطْلُبُ مَعونَتي . »

فَيَقولُ الرَّجُلُ :

« أَيَّةُ رائِحَةٍ ، يا رَجُلُ ؟ »

وَيَبْدَأُ أَشْعَبُ في وَصْفِ الطَّعامِ الَّذي اشْتَمَّ رائِحَتَهُ ، وأَنَّهُ وَهَبَ نَفْسَهُ لِحِمايَةِ قَوْمِهِ ، فَلا بُدَّ أَنْ يَذوقَ طَعامَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَناوَلوهُ هُمْ ، لَعَلَّهُ يَكونُ فاسِدًا فَيُجَنِّبَهُمْ شَرَّ الْمَرَضِ . يَضْحَكُ الرَّجُلُ وَيَدْعو أَشْعَبَ إِلى الطَّعامِ مَعَهُ .

وَيَزورُ أَشْعَبُ رَجُلاً آخَرَ فَإِذا أَطْعَمَهُ ، قالَ لَهُ أَشْعَبُ إِنَّ الجَوَّ شَديدُ الحَرارَةِ ، وإِنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ أَنْ يُغادِرَ بَيْتَهُ مَساءً ، وَلَنْ يَسْتَطيعَ أَنْ يَزورَهُ لَيْلاً ؛ لِكَي يَسْتَكْمِلَ سَماعَ حَديثِ الرَّجُلِ العَذْبِ ، فَيَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يُعْطِيَهُ بَعْضَ الطَّعامِ لِيَأْكُلَ مَساءً ، وَهُوَ آسِفٌ عَلى عَدَمِ اسْتِطاعَتِهِ الحُضورَ لِلعَشاءِ مَعَهُ مِنْ ذَلِكَ الطَّعامِ الشَّهِيِّ .

صارَ طَمَعُ أَشْعَبَ مَضْرِبَ الأَمْثالِ بَيْنَ القَوْمِ ، فَأَصْبَحَ مَنْ يُوصَمُ بِالطَّمَعِ بَيْنَ النّاسِ ، يُوصَفُ بِأَنَّهُ أَطْمَعُ مِنْ أَشْعَبَ .

المحتويات



الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوِّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

الينابيع

١- سَيف الإحسَان وَقصَص أخرَى
٢- حبّات العقد وَقصَص أخرَى
٣- عَنترة بْن شدّاد: مَولِد البطَل
٤- عَنترة بن شدّاد: عَبلَة وَالصّبيّ المقاتِل
٥- البَاحِث عَن الحَظّ وَقصَص أخرَى
٦- عَنترة بن شدّاد: السَّيف وَالكَلِمات
٧- عَنترة بْن شدّاد: يَوم عَنترة
٨- رحْلة السّندباد المَجهُولَة
٩- الشّعْرة الذّهبيّة
١٠- مَشورَة قصَير وَقصَص أخرَى
١١- الدّهَان السّحريّ وَقصَص أخرَى
١٢- مَزْحَة صَيف وَقصَص أخرَى
١٣- كُرْسيّ السُّلطَان
١٤- بَدْر البُدُور
١٥- حِكايَة الفَتَى العَربيّ وَقصَص أخرَى
١٦- العَطّار وَالعقد وَقصَص أخرَى
١٧- بَائع السّعَادَة وَقصَص أخرَى
١٨- رَجع بَخفّي حُنَين وَقصَص أخرَى

ISBN 977-16-0425-2



مَكتبَة لبنَان نَاشِرُون
الشركَة المصْريَّة العَالميَّة لِلنشْر - لونجْمان